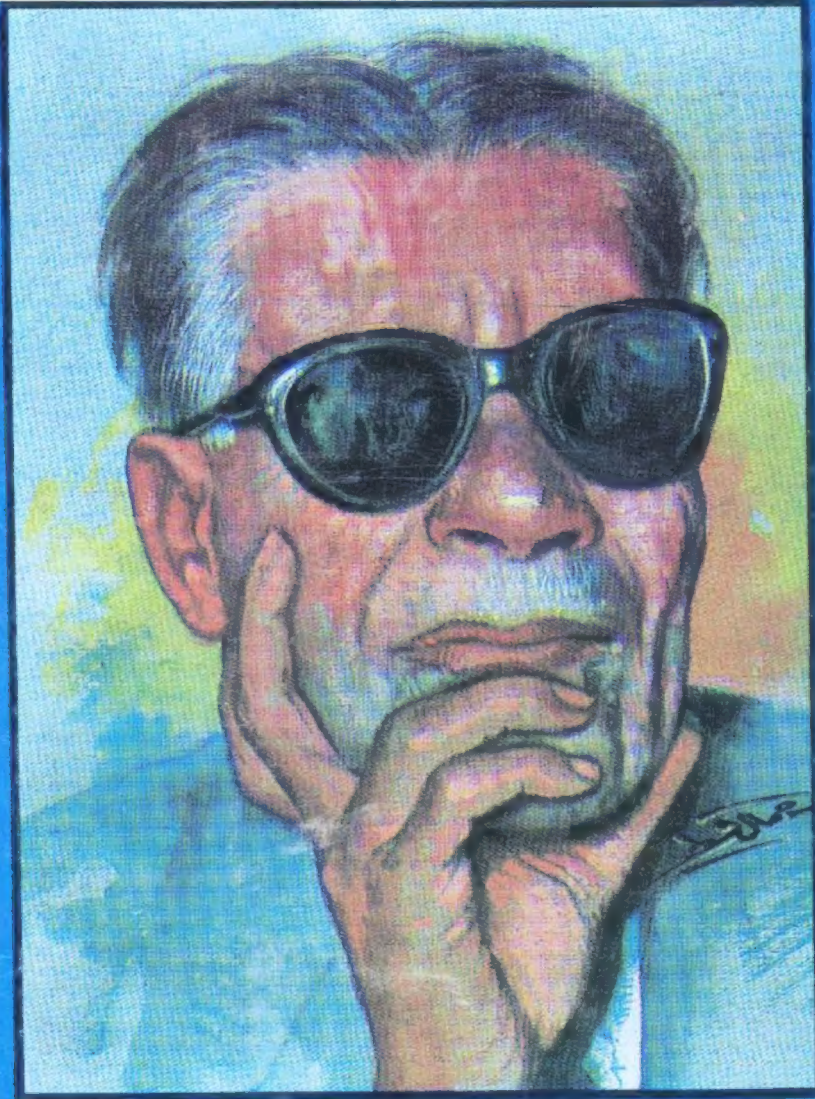


منتدى مكتبة الإسكندرية

طه حسين

المعذبون في الأرض

فاطمة



دار المعارف

المعذبون في الأرض

بطاقة النهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حسين ، طه ، ١٨٨٩ - ١٩٧٣ .
المخبون في الأرض .
تأليف : طه حسين .
ط ١٣ - القاهرة : دار المعارف ، (٢٠٠٨) .
١٩٢٢ ص ٢٠٤ سم .
تكم : ٩ - ٧٢٢٥ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - القصص العربية القصيرة .
(أ) العنوان .

فيوى ٨١٣،٠١

١/٢٠٠٨/٦٣

رقم الإيداع ١٦٨٨٠ / ٢٠٠٨

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الإلكتروني
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع .

هاتف ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

طه حسين

المعذبون في الأرض

الطبعة الثالثة عشرة



دار المعارف

مقدمة (١)

إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ،
وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل ،
إلى أولئك وهؤلاء جميعاً ،
أسوق هذا الحديث

* * *

إلى الذين يجدون ما لا ينتفون ،
وإلى الذين لا يجدون ما ينتفون ،
يساق هذا الحديث

لا أجد لتصوير الحياة في مصر أثناء الأعوام الأخيرة من
العهد الماضي أدق من هذين الإلهاتين اللذين يقرؤهما كل
من تناول هذا الكتاب ؛ فقد كان المصريون في تلك الأعوام
القريبة البعيدة فريقين ، أحدهما يصور الكثرة الكثيرة البائسة
التي تتحرق شوقاً إلى العدل مصبحة ومسية وفيما بين ذلك من آناء
الليل وأطراف النهار ، والآخر يصور القلة القليلة التي تشفق من
العدل حين تستقبل ضوء النهار ، وتفزع من العدل حين تجنّبها
ظلمة الليل ؛ وكان فريق الكثرة ذاك لا يجد ما ينتفق في
رزق نفسه وفي رزق من يعول ، فيشتق بما يجد من الحرمان ،
ويشتق أشد الشقاء وأعظمه نكراً بما يجد عياله من الحرمان ؛
كانت عينه بصيرة إلى أبعد ما يبلغ البصر ؛ وكانت يده

(١) كتبت هذه المقدمة لأول طبعة أصدرتها دار المعارف بمصر من هذا

لكتاب بعد قيام الثورة المصرية في يوليو ١٩٥٢ .

قصيرة إلى أدنى ما يكون القصر ؛ كان يرى الطيبات بين يديه فتوق إليها نفسه ، وتتوق إليها نفوس بنيه وبناته ؛ فإذا أراد أن يمد إليها يده أبت أن تمتد كأنما أصابها شلل ، أو كأنها شلت إلى سائر جسمه بأثقل الأغلال ؛ فكان يكظم غيظه ويصبر نفسه على مكروها ، ويصبر أهله على البأساء والضراء ؛ و ينتظر العدل الذى يبطئ عليه فيغلو في الإبطاء .

وكان يرى الآفات المختلفة تصطالح على جسمه ونفسه ، وعلى أجسام عياله ونفوسهم ، ويهم أن يصلح مما تفسده تلك الآفات ، فيقصر به همه ، ويقعد به عزمه ، ويضطر إلى أن يسلم نفسه وأهله لهذه الآفات تعبت بهم كما تريد ، قد وطن نفسه على الجهل لأن أباه لم يستطع تعليمه ، وهم أن يخرج عياله من الجهل الذى اضطروا إليه ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، فرضى الجهل لبنيه كما رضيه لنفسه ، وانتظر العدل الذى يُتيح لبنيه من المعرفة ما لم يُتاح له فى صباه ، ولكن العدل يبطئ عليه وعلى بنيه فيغلو فى الإبطاء .

وكان يرى البؤس له خليطاً بغيضاً ، يصحبه إذا سعى فى الأرض ، ويصحبه إذا راح إلى داره ، ويسكن معه ومع أسرته فى تلك الدار إن أتاحت له ولأسرته دار يأوون إليها ؛ فيصبر نفسه على هذا الخليط البغيض ، ويصبر أهله عليه ، واثقاً بأنه لن يستطيع منه فراراً ، لأنه لن يستطيع أن يتخذ

نفقاً في الأرض أو سلباً في السماء ؛ فينتظر العدل الذي سيخلصه ويخلص أهله من خليطه ذاك البغيض ، ولكن العدل يبطئ عليه فيغلو في الإبطاء .

ولم يكن البؤس يرضى أن يصحب هذا الفريق إلا إذا تبعه أصحابه من الجوع والعري والعلل والذل والهوان ، والكذب الذي يضني ولا يُفني ، والهم الذي يسوء وينوء ؛ وكان الناس من ذلك الفريق ييغضون أولئك الضيف أشد البغض ، ويضيقون بهم أشد الضيق ، ولكنهم لا يجدون إلى الخلاص من ضيفهم الثقلاء سبيلاً إلا أن يأتي العدل فيلقى بينهم وبين ضيفهم ستراراً ؛ ولكن العدل كان بطيئاً مسرفاً في البطء ، كأنه كان يمشي في القيد ، لا يكاد يخطو خطوات قصاراً حتى يجذبه من ورائه جاذب فيرده إلى مكانه الذي استقر فيه بعيداً كل البعد عن الناس الذين يحبهم ويحبونه ، ويشتاق إليهم ويشتاقون إليه . كذلك كان ذلك الفريق طامحاً إلى العدل ، يحرقه طموحه دون أن يبلغه شيئاً ، وما أكثر ما مضت الأجيال وليس لها من العدل حظ إلا انتظارها له ، وتحرقها شوقاً إليه .

فأما الفريق الثاني ، فريق تلك القلة القليلة ، فقد كان يرى بؤس الفريق الأول وشقاءه وعناؤه ، وخضوعه للمحن والخطوب ، وإذعائه للكوارث والثائبات ؛ فلا يحفل بما يرى ولا يلتفت إليه ؛ ولعله لم يكن يرى شيئاً ولا يحس شيئاً ؛ كان

مشغولاً يسهره عن عسر الناس من حوله ، وكان مشغولاً بترفه
عن شظف الناس من حوله ، وكان مثقلاً بالغنى فلا يعنيه
أن يثقل الناس بالفقر . كان نظره قصيراً كأدنى ما يكون القصر ،
وكانت يده طويلة كأبعد ما يكون الطول ؛ كان يشتهي فيبلغ
ما يشتهي حتى سئم شهواته ، وكان يريد فيبلغ ما يريد حتى
ملَّ لإرادته ، وكان قلبه قد قسا فهو كالحجارة أو أشد قسوة ،
وإن من الحجارة لما تتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق
فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ؛ وكان
عقله قد حُجب عما حوله أو حجب عنه ما حوله ، فهو لا يرى
ما كان يملأ البيئة التي يعيش فيها من النُّثر ، فإن رأى منها
شيئاً أعرض ونأى بجانبه وأمعن في الحلق والغرور ، فلم يفكر
فيما كان ، ولم يفكر فيما يمكن أن يكون ، وإنما عاش للساعة
التي هو فيها كأن كل يوم من أيامه قد اقتطع من الزمان
اقتطاعاً فليس له أمس وليس له غد ، والبعد يشتد بينه وبين
ذلك الفريق من البائسين المعذبين ، فهو لا يحسهم إلا أن
يحتاج إليهم ، وهو إذا احتاج إليهم لم يرفق بهم ولم يعطف
عليهم ، وإنما ينزل إليهم الأمر تزيلاً أن يشتقوا له من شفائهم
سعادة ، ومن عنائهم راحة ، ومن يؤسهم نعيماً ؛ وكانت
الحكومات تقوم على إرضاء هذا الفريق المترف طوعاً أو كرهاً ،
وربما حاول بعضها أن يختلس شيئاً من الإصلاح اختلاصاً

فنظر إلى هذا الفريق من الملعدين في الأرض نظرة فيها شيء من إشفاق وهم^١ إن يحسهم بجناح من رحمة ، ولكنه لا يكاد يفعل حتى تزلزل به الأرض ويحاول بينه وبين الحكم ، وتلقى عليه الدروس في أثر الدروس لعله يفهم أن غاية الحكم إنما هي أن يزداد المترف ترفاً ويمعن البائس في اليأس والشقاء . في بعض ذلك العهد نُشرت هذه الأحاديث متفرقة^(١) ، فلم تحفل بها الحكومة القائمة إذ ذاك ولم تلتفت إليها ، ولكنها جُمعت ذات يوم في كتاب وأرادت أن تصل إلى أيدي القراء مجتمعة لتعظ المسرف وتعزى المحروم ، وهناك حفلت بها تلك الحكومة والتفتت إليها ووقفت عندها وقفة لم تطل ، وإنما صدر فيها الأمر بأن يحال بين هذا الكتاب وبين الناس ، وبأن تؤخذ نسخة من المطبعة إلى حيث يصنع بها السلطان ما يشاء ، يحرقها أو يخرقها أو يفرقها أو ما شاء الله من ألوان العبث ما دامت لا تصل إلى أيدي القراء .

وكذلك صودر هذا الكتاب فيما صودر من كتب أخرى كانت تريد أن تبصر المصريين بحقائق أمورهم ، وأن تعظ منهم الطغاة والبلغاة ، وتعزى منهم البائسين واليائسين ؛ ونظرت مصر التي كانت ترى أنها ملجأ الحرية في الشرق الأدنى ، وأنها قائدة الشعوب العربية إلى الكرامة والعزة والاستقلال ، وأنها آمنت من بني الدولة التركية القديمة وطفليانها أحرار

(١) نشرت كل هذه الأحاديث متفرقة بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٩

سوريا ولبنان والعراق ؛ نظرت مصر هذه فإذا كتاب قد كتبه أحد أبنائها يحال بينه وبين المواطنين ، وإذا هو يسلك طريقه إلى لبنان فيطبع فيه وينشر ، ويداع في أقطار البلاد العربية ، ثم يعود إلى مصر فيدخلها خائفاً يترقب ويستخفي به قراؤه استخفاء ؛ ثم يعاد طبعه ونشره في لبنان ، والقراء من المصريين يسمعون بذلك فينكرون فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بهذا النكير . . .

عادت مصر لإذن إلى مثل ما كانت عليه فرنسا أثناء القرن السابع عشر ، حين كان بعض كتابها يفرون بكتبهم لينشروها في هولندا مخافة البأس والبطش وطغيان الرقيب . وأحاول أن أفهم مصدر هذا الخوف الذي أغرى تلك الحكومة بهذا الكتاب فحرمت عليه الحياة في مصر ، فلا أجد إلى فهمه سبيلاً ؛ فليس في الكتاب سياسة أو شيء يشبه السياسة ، وليس في الكتاب تحريض على النظام الاجتماعي ينكره القانون ، وليس فيه إغراء بتلك المبادئ الهدامة كما كان يقال في ذلك الوقت ، وليس من فصوله فصل إلا وقد نشر في مجلة أو صحيفة سيارة فلم تنكره الحكومة ولم تضق به النيابة ولم يقدم كاتبه ونشره إلى القضاء .

وإذن فهو الخوف الذي يورط في البغي ، وهو الذعر الذي يدفع إلى الطغيان ، وهو التنكيل بالكاتب من طريق

التكبل بكتابه ، وهو الاستجابة للهوى والانقياد للشهوة والحكم في الناس بالحب والبغض لا بالحق والعدل . ولست أعرف أشد حمقاً ولا أجهل جهلاً ولا أغبي غباء من الذين يصلون في حكمهم عن الخوف والذعر ، وعن الشهوة والهوى ، وعن الحب والبغض ، فهم يورطون أنفسهم في ألوان من السخف لا تكاد تنقضى ، يحسبون أن قدرتهم تبلغ كل شيء ، مع أنها قدرة إنسانية محدودة لما مدى لا تستطيع أن تتجاوزه ؛ فهي تصدر كتاباً في مصر وتظن أنها حالت بينه وبين المصريين ؛ ثم لا تلبث أن تراه قد نشر في لبنان وعاد إلى مصر فقرأه الناس فيها ، وانتفض عليها كل ما أبرمت ، وفسد عليها كل ما دبرت ، واستبق الناس إلى هذا الكتاب وتنافسوا في الظفر به ؛ ولو قد خلت الحكومة بينهم وبينه لكان منهم القارئ له والمعرض عنه ؛ ويحسبون أنهم يفهمون كل شيء ، وأن عقولهم تنفذ إلى ما لا تنفذ إليه عقول غيرهم من الناس ، وعقولهم مع ذلك عقول إنسانية تفهم من الأمر قليلاً وتعي عن فهم الكثير ، ولو قد فطنت عقولهم لكل ما كانت الصحف تنشر من الفصول ، ولكل ما كانت المطابع تذيب من الكتب ، لعطلوا الصحف كلها تعطيلاً ، ولأغلقوا المطابع كلها إغلاقاً . وأى شيء أدل على ذلك من هذا الأدب الجديد الذي أنشأته حكومات الطغيان إنشاء حين اضطرت الكتاب إلى العدول

عن الصراحة إلى فنون من التعريض والتلميح ، ومن الإشارة والرمز ، حتى استقل هذا الأدب بنفسه وتنافس القراء فيه تنافساً شديداً ، وجعلوا يقرأون ويؤولون ، ويناقش بعضهم بعضاً في التأويل والتحليل ، واستخراج المعاني الواضحة من الإشارات الغامضة . وانظر إلى ما نشر صاحب هذا الكتاب من « جنة الشوك » و « جنة الحيوان » و « مرآة الضمير الحديث » و « أحلام شهر زاد » ؛ فلن ترى فيها إلا رمزاً لمظاهر كنا نبغها ولا نستطيع أن نتحدث عنها في صراحة أثناء تلك الأيام السود ، فكنا نؤثر الغموض على الوضوح ، والرمز والإلغاز على التصريح ، والإشارة والتلميح على تسمية الأشياء بأسمائها ؛ وكانت حكومات ذلك العهد ورقابتها تقرأ فلا تفهم ، فتخلى بين الكتاب وما يكتبون ، وتخلى بين القراء وما يذاع فيهم من ذلك الأدب الجديد . وكذلك قهر الأدب بغى البغاة ، وأفلت من رقابة الرقباء ، وسجل على الظالمين ظلمهم ، وعلى المفسدين إفسادهم ، وأنشأ بينه وبين القراء لغة جديدة يفهمها الأدباء وقراؤهم ، وفناً جديداً يذوقه القراء ويحبونه ويؤثرون على فنون التصريح والوضوح . والأدب أشبه شيء بالنهر العظيم القوى الذى يندفع من ينباعه فيشق مجراه حتى يصل إلى البحر ، قاهراً ما يلقاه من المصاعب ، مفتحماً ما يعترضه من العقاب ، محتالاً في شق

طريقه ألواناً من الخيل تنتهى به كلها إلى غايته ؛ فظلم الظالمين
وبطش أصحاب الطغيان وتحكم الرقباء ، كل أولئك أضعف
من أن يقوم فى سبيل الأدب والفن أو يحول بينهما وبين القراء .
يا لها ليالى قاتمة مظلمة كثيفة الإظلام ، لم يتح فيها للنجوم
أن ترسل سهامها المشرقة ، ولم يتح فيها للقمر أن ينشر ضوءه
الهادى الجميل ، وإنما ازدحمت فيها الظلمات يركب بعضها
بعضاً ، وقد احتملنا أثقالها ونهضنا بأعبائها نكاد نخنق ،
ولكننا مع ذلك نرسل أنفاسنا حارة محرقة كأنها شعل من نار
تضىء لقراءتنا الطريق وتهديهم إلى قصد السبيل .

وها هو الفجر الصادق قد أخذ يشير إلى الظلمات المتراكبة
المتراكمة بأصبغه الوردية التى ذكرها الشعراء ، فتنهزم متفرقة
كأنها لم تزدحم ولم يركب بعضها بعضاً ؛ وما هى إلا أيام
وأسابيع ، وإذا الفجر الضئيل يمتد ويتسع ويملا الأرض نوراً
وجالاً وبراً وإنصافاً ؛ وهنالك لا يحتاج الأديب إلى حيلة
ليعرب عن ذات نفسه ، ولا إلى رمز يخفى به سر ضميره
على الرقباء ؛ وإنما يتحدث إلى قرائه فى صراحة ووضوح
ويسر ورضى ، يصور لهم حياة ناعمة وعيشاً رغداً وعدلاً واسعاً ،
بعد أن صور لهم جحيم البؤس والجور والشقاء .

صدق الله الظنون ، وحقق الآمال ، وجعل ثورتنا الموقفة
عضيداً للحق وسنداً للعدل وأداة للإنصاف وسبيلاً إلى المساواة ؛
وبدل المعذيين فى الأرض من عذابهم رحمة ، ومن شقاؤهم
سعادة ، ومن بؤسهم نعماً .

1-١

صالح

« إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبير الأخيرة فأنبئني ؛ فإن فعلت ذلك فأنت ابني حقاً » . قال الصبي وهو يتشم لأمه التي كانت تحدثه هذا الحديث وهي تداعب خده : « فإن لم أفعل فابن من أكون ؟ » .

هنالك وجمت أم الصبي شيئاً ، وتضاحك من حولها بنوها وبناتها ، ولكنها لطمت خد الصبي لطمة خفيفة ظريفة وهي تقول : « إنك لطويل اللسان كثير الحصام » ثم دسست في يد الصبي قطعة من سكر وأعادت عليه قولها : « إذا سمعت الشيخ يرفع صوته بالتكبير الأخيرة فأنبئني ، وإن فعلت ذلك فلك مثلها قبل أن تنام » . قال الصبي وهو يقضم السكر قضمًا : « أما الآن فنعم » . ثم انطلق مسرعاً يتبعه ضحك أمه ومن حولها بنوها وبناتها .

وكانت الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء ؛ فقد ألم بها ضيف لهم خطر ومكانة في الإقليم ، وهم لم يقبلوا أصفار الأيدي ، وإنما أقبلوا يحملون من الطرف والهدايا شيئاً كثيراً . وكانت سيدة الدار حريصة دائماً على الاحتفاء بالضيف ، مهتمة في ذلك المساء بالتكبير الأخيرة حين يرفع الشيخ بها صوته .

ليخرج بها من دعائه بعد صلاة المغرب . فقد كانت أصناف الطعام مهياة تنتظر أن تُحمل إلى المائدة حين يفرغ الضيف من صلاتهم مع الشيخ ، وكان الثريد وهو أول هذه الأصناف قد هبى ، ولكن تهيئته لم تتم بعد ؛ فقد فت الخبز في طبق كبير ، وأعد المرق وتم إعداد الأرز ، وقطع الثوم قطعاً تؤشك أن تشبه الذرات . ولكن إعداد هذا الصنف يجب ألا يتم إلا في اللحظة الأخيرة حتى لا يشرب الخبز كل المرق ولا يذهب ريح الثوم والحل في الجوف ، ولا يبرد الأرز فيفسد ما ألقى عليه من السمن . من أجل هذا كله لم يكن بد من أن يتسمع الصبي لدعاء الشيخ حتى إذا رفع صوته بالتكبير الأخيرة أسرع إلى أمه فأنبأها ، وأسرعت هي إلى هذه الأخلاط من الخبز والمرق والثوم والحل والأرز فجمعتها في هذا الطبق الكبير الذى كان ينتظرها منذ حين . فإذا استفتح العشاء بهذا الصنف تبعته الأصناف الأخرى على مهل وريث ، فليس في الإبطاء بها بأس ولا جناح ، ولكن الصبي لم ينبى أمه بشيء لأنه لم يسمع شيئاً ، وإنما شغل عن التكبير الأولى وعن التكبير الأخيرة بأمرذى بال . وقد فرغ الشيخ وضيفه من صلاتهم وجلسوا يتحدثون ينتظرون أن يحمل إليهم العشاء . وجعل الشيخ يترقب هذا العشاء قلقاً لأنه لم يتعود مثل هذا الإبطاء حين يلم به الضيف . وقد همّ غير مرة أن يضرب إحدى يديه بالأخرى ليعلم أهل الدار أن

الضيف ينتظرون ، ولكنه استحميا وكره أن يظن به تنبيه أهل الدار ، وأن يُظَنَّ بأهل الدار غفلة أو إهمال ، فضى فى حديثه يرفع به صوته . ومرت من وراء الباب إحدى بناته ، فسمعت الصوت يرتفع بالحديث . وأسرعت إلى أمها فأنبأها بما لم ينبها به الصبي ، وما هى إلا لحظة حتى كان الضيف إلى مائدتهم يأكلون ويلغظون .

وقد كان الصبي خالص النية صادق الرأى ، قد اتخذ مرقبه فى زاوية من فناء الدار ، هنالك حيث تجتمع قطع من الحديد كان يراها كثره ، وكان يخلو إليها فينفق الساعة والساعات فى جمعها وتفريقها وطرق بعضها ببعض ، يجد فى ذلك تسلية وهواً ، ينفرد به مرة ويشارك فيه أخته الصغيرة مرة أخرى ؛ وقد جلس فى زاويته تلك أمام حديدته ذاك ، واعتزم إذا أتم التهام قطعة السكر أن يقبل إلى قطع الحديد فيعيب بها فى رفق مانحاً الشيخ وضيفه إحدى أذنيه ، مستمعاً متتبِعاً لصلاتهم ، حتى إذا سمع التكبيرة الأخيرة يرتفع بها صوت الشيخ انسل إلى أمه فألقى إليها النبأ ثم عاد إلى لعبه فضى فيه .

ولكنه لم يكد يستقر فى زاويته ويمضى فى قضم سكره حتى أحس يداً تمس كتفه ، ونظر فإذا رفيقه صالح مائل أمامه يداعب كتفه بإحدى يديه ويقبض بيده الأخرى على طاقة من زهر الحقل يقدمها إليه باسماء . وقد نظر الصبي إلى صالح

فراعه ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره أكثر مما ينبغي ، وقد انشق عن كتفه فظهرتا منه نابيتين ، والثوب على ذلك رث قدر يظهر من جسم الصبي أكثر مما ينبغي ، كأنه أسمال قد وصل بعضها ببعض وصلًا ما ، وعلقت على هذا الجسم الضئيل الناحل تعليقاً ما ، لتستر منه ما تستطيع ، وليقال إن صاحبه لا يعضى به متجرداً عرياناً . ثم رفع الصبي رأسه إلى وجه صالح فرأى بؤساً شاحباً يشيع فيه ، ورأى ابتسامة فيها كثير من حزن وكثير من أمل ، ورأى عينين تدوران تنظران إلى ما حولهما ، تنخفضان حيناً إلى هذا الحديد الملقى على الأرض ، وترتفعان حيناً إلى قطعة السكر في يد رفيقه ، وترتفعان بعد ذلك إلى عناقيد الكرم هذه التي تتدلى على الجدران وتمتد على هذه العيdan التي نصبت لتحملها .

والصبي على ذلك كله باسط يده إلى رفيقه بهذه الطاقة الساذجة الحسنة من زهر الحقول يقول له : « لم أرد أن أعود إلى دارنا دون أن أمر بك وأحمل إليك هذه الأكمام التي لم تفتح بعد . خذها إليك وضعها في إناء فيه شيء من ماء وانظر بها الصبح ، ثم أقبل عليها فستراها مفتوحة عن زهر جميل طيب الرائحة » . لم يقل الصبي لصالح شيئاً ، وإنما أخذ منه زهراته وأعطاه ما بقي في يده من قطعة السكر ، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطع الحديد . وقد أخذ صالح قطعة السكر فأطال

النظر إليها ، والتحديث فيها ، وقربها من فمه ثم أبعدا عنه ، ثم نظر إليها نظرة قصيرة ، ثم دسها في فمه بين خده وأضراسه واستأنى بها لتذوب في رفق وليطول استمتاعه بذوقها الحلو . ثم جلس وأخذ يقلب مع رفيقه قطع الحديد . ثم لم يطل صمت الرفيقين ، وإنما استأنفا حديثهما عن الكتاب وعن الرفاق وعن الحقل وعن أهل القرية . وأنسى الصبي بهذا كله صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذي كان يجب أن يحمله إلى أمه ، ولم يرعه بعد وقت طويل أو قصير إلا صوت أخته تدعوه من وراء الباب إلى العشاء .

وقد فرغ الشيخ وأصحابه من طعامهم وفرغوا كذلك من الصلاة الآخرة وما يتبعها من دعاء ، ودارت عليهم قهوة الليل . وجمعت ربة الدار الصغار من بنينا وبناتها إلى طعامهم ، وافتقدت صاحبنا ذاك المهدار فأرسلت أخته تلتسمه في مظانه .

ولما سمع صوت أخته تدعوه أبطأ في الاستجابة لها ، لأنه لم يكن يدري كيف يخلص من رفيقه ، أو لم يكن يجب أن يخلص من رفيقه . ولكن صالحاً قال له في صوت خافت حزين : « أجب ، إنك تدعى إلى العشاء » . قال الصبي لصالح : « وأنت هل تعشيت ؟ » قال صالح : « سأتعشى حين أبلغ الدار » . ونهض متاثقاً وأدبر يريد أن يخرج ، ولو استطاع لأقام ، ولكنه مضى . وعاد الصبي إلى أمه وفي يده تلك الزهرات ،

فلما رآته أنكرت نسيانه لما أمرته به ، ولكنها سألته عن هذه الزهرات من حملهن إليه . قال الصبي وفي صوته اختلاجة خفيفة : حملهن إلى صالح بن الحاج علي . قالت أمه : « ولم تعطه شيئاً ؟ » قال الصبي : « أعطيته ما بقي لي من قطعة السكر » . قالت أمه : « وما تراه يصنع بقطعة السكر ؟ أتراه يدفع بها عن نفسه الجوع ، ألم تستبقه للعشاء ؟ » قال الصبي مضطرباً : « هممت ولكنني لم أجروء » . قالت أمه : « فامض في أثره مسرعاً حتى تعود به وحتى تتعشى معه » . وانطلق الصبي كأنه السهم . ولم يكده يجاوز باب الدار حتى رفع صوته بدعاء صاحبه ، ولكنه لم يحتاج إلى أن يعدو ، ولا إلى أن يكرر الدعاء ، فقد كان صالح قائماً أمام الدار قد استند إلى الحائط ومد بصره أمامه وقدم إحدى رجله وأخر الأخرى يريد أن يمضي وتنازعه نفسه إلى البقاء . فلما سمع صوت رفيقه أجاب مستخدماً : « هأنذا ، ماذا تريد ؟ » قال الصبي : « أريد أن تبقى لتتعشى معاً » . ولم يقل صالح شيئاً ، وإنما تحول إلى رفيقه وسعى في أثره هادئاً مطرقاً كأنه الكلب يتبع صاحبه إذا دعاه .

ولم يكده الصبي يغلق الباب من دونه حتى رأى إحدى أخواته قد وضعت في زاويته تلك كرسياً مستديراً وعليه صينية مستديرة مثله ، وقد كثرت على هذه الصينية الأطباق فيها من كل أصناف الطعام التي قدمت للضيف . وأبت أخت الصبي

أن تشارك الأسرة في عشاها وأثرت أن تقوم على خدمة هذين الرفيقين . حتى إذا فرغا من طعامهما مضى صالح موفوراً وعاد الصبي إلى أمه راضياً . فقالت له وهي تمسح رأسه : « إذا زارك رفيق لك في وقت العشاء فلا ينبغي أن تدعه ينصرف دون أن تدعوه إلى مشاركتك في الطعام » . ثم قالت له بعد صمت قصير : « هل تعلم أن صالحاً إنما حمل إليك هذه الزهرات ليتعشى ؟ » قال الصبي : « لا أعلم » . قالت أمه : « لقد رأى الأضياف حين أقبلوا ، ورأى ما حلوا من الطرف والهدايا ، وعلم أن سيكون في الدار خير كثير هذا المساء ، فأراد أن يصيب منه شيئاً . واتخذ أزهاره هذه تعلقة يلم بها في الدار ليقدمها إليك » . قال الصبي : « لو رأيت ثوبه وقد بدا منه صدره وظهره وكتفاه ! » قالت أمه : « إذا خرجت من الكتاب غداً فاحمله على أن يصحبك ، فإن عندي من ثيابك ما يكسوه » .

ثم انصرفت إلى بنيتها وبناتها تحدثهم عن الضيف وعن العشاء ، تلوم هذه لأنها نسيت أن تحرك الأرز حين ألقته في الماء وهو يضطرب من الغليان ، وأوشك هذا اللون من ألوان الطعام أن يفسد ويصبح عجينة متماسكة لا تصلح لشيء ، ومن حق الأرز ألا يلتئم ولا يتماسك وأن تتفرق حباته وتمتاز . وتثنى على تلك لأنها رفقت بالفالودج فلم تتركه سائلاً تفيض به الملاعن كأنه الحساء ، ولم تجعله جامداً تقطعه الملاعن

قطعاً ولم نهمل تحريكه حتى تتخلله تلك العقد البغيضة التي لا تجعله سائغاً ولا يسيراً ، وإنما صنعته سواء سهلاً لا يبلغ الأفواه حتى تدعوه الحلو ، وهو فيما بين ذلك خفيف حلو المذاق . وإنما لتحدث إلى بناتها هذه الأحاديث التي كانت تعلمهن بها فنون الطهي والتي كان أبناؤها يسمعون لها فيغرقون في ضحك متصل ، وإذا الصبي يقطع عليها حديثها ويسألها ما بال صالح لم يتعش في داره ؟ أجابت أمه : « ألم أقل لك إنه أحس أن سيكون عندنا خير كثير فأراد أن يصيب منه ؟ » قال الصبي : « فإني أرى الأضياف يلمون بجارنا كما يلمون بنا ، وأعرف أن عند جارنا خيراً كثيراً فلا أسعى إلى أترابي من أبنائه ولا أحاول أن أصيب مما عندهم » . قالت : « لأنك لست في حاجة إلى ذلك فلست محروماً » . قال الصبي : « فصالح محروم إذن ؟ » قالت أمه متضاحكة ، وقد أخذ إخوته من حوله يضيقون بلجاجته وإلحاحه : « لأن أباك ميسر عليه في الرزق ، وقد قتر في الرزق على أبي صالح » . قال الصبي : « ولماذا ؟ » قالت أمه : « إنك لمكثار » . ثم التفتت إلى كبرى بناتها وهي تقول : « خذيه إلى مضجعه ، فقد تقدم الليل وأن له أن ينام » . وأصبح الصبي فغدا على كتابه كما تعود أن يفعل خمسة أيام في الأسبوع . وقد يخطر للقارئ أن يسألني عن هذا الصبي ما اسمه ؟ وما موطنه ؟ وما بيته ؟ وما أسرته ؟ ومن عسى أن

يكون ؟ ولكنى أجيب القارئ إن خطرت له هذه الأسئلة كما كان الكاتب الفرنسي « ديديرو » يجيب قراءه حين يخيل إليه أنهم يسألونه أو يهتمون أن يسألوه عن بعض الأمر من قصصه - أجيب القارئ بأنه يسرف على نفسه وعلى بهذه الأسئلة التي قد يكون الرد عليها مفيداً لتكون القصة منسقة حسنة البناء ملتزمة الأجزاء بأخذ بعضها برقاب بعض ، كما كان النقاد القدماء يقولون . ولكنى لا أحاول أن أضع قصة فأخضعها لما ينبغي أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد ، فقد يجب لتستقيم القصة أن يحدد الزمان والمكان وتستبين شخصية الناس الذين تحدث لهم الحوادث أو الذين يحدثون هذه الحوادث ، الذين تعرض لهم الخطوب أو الذين يبتكرون هذه الخطوب لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن . ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو كلام يخطر لي فأمليه ثم أذيعه ، فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ، ومن ضاق بقراءته فليصرف عنه ، ومن شاء أن يرضى عنه بعد فليرض مشكوراً ، ومن شاء أن يسخط عليه بعد القراءة فليسخط مشكوراً أيضاً . والمهم هو أن يخطر لي الكلام وأن أمليه وأن

أذيعه ، وأن يمجّد القارئ ما يشعره بأن له إرادة حرة تستطيع أن تغريه بالقراءة وأن تصده عنها ، وأن يشعر القارئ أيضاً بأن له ذوقاً صافياً يستطيع أن يعرف في الأدب وأن ينكر ، وأن يقبل من الأدب أو يرفض ؛ وليس هذا كله بالشىء القليل . وما أحب أن بظن القارئ أنى أتحكم فيه أو أتجنى عليه ، فأنا أبعد الناس عن التحكم وأزهدهم في التجنى ، وأشدهم للقارئ حباً وإكباراً . ولكنى لا أحب أن يتحكم القارئ في ولا أن يتجنى على ولا أن تخضعني لذوقه ، كما لا أحب أن أخضعه لذوقي . ويجب أن تكون الحرية هي الأساس الصحيح للصلة بين القارئ وبينى حين أكتب أنا ويقرأ هو . ولو أنى استجبت لهذه الأسئلة فبينت موطن الصبي وبيته وعرفت أسرته إلى القراء لطال بي الحديث أكثر مما أحب أن يطول . وليس في الحديث صبي واحد ، بل فيه صبيان ، أحدهما صالح هذا الذى يتخذ زهرات الحقول وسيلة إلى عشاء يصيبه ، والآخر هو هذا الصبي الذى وجد عنده صالح هذا العشاء . ولأكن منصفاً ، فقد يكون من حق القارئ أن أسمى له هذا الصبي الثانى ما دمت قد سميت له الصبي الأول ، ليكون الأمر ميسراً له فلا يضطرب بين صبي يعرف اسمه واسم أبيه وصبي آخر لا يعرف من أمره شيئاً . والواقع أنى حين أخذت في إملاء هذا الحديث لم أكن أعرف لهذا الصبي الثانى اسماً . وما زلت أجهل اسمه إلى

الآن . فلم يكن شخص هذا الصبي ولم يكن شخص صالح
يعننى ، وإنما كانت الأحداث التى حدثت للصبيين هى التى
تعننى . وأكبر الظن أن صالحاً هذا لم يوجد قط لأنه يملأ المملكة
المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، يوجد فى
القرى ويوجد فى المدن ويوجد فى كل مكان ، يملأ مصر نعمة
وخيراً ، وهو مع ذلك يشعر الناس بأن مصر هى بلد البؤس
والشقاء . وأنا أزعم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن لا
يستطيع أن يقضى يوماً من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى
صالحاً هذا الذى لا يجد ما ينفق ، والذى يود أن تتاح له الوسيلة
ليجد الغداء أو العشاء ، عند رفيقه ذاك الصبي الذى لم نجد له
اسماً إلى الآن . فلتنطق علي أن اسمه أمين ، وعلى أنه كان يختلف
إلى الكتاب مع قليل جداً من أمثاله الذين يعيشون فى شيء من
اليسر ، وكثير جداً من أترابه الذين يستظلون بهذا الظل الوارف
الجميل ، ظل البؤس والشقاء والحرمان وابتغاء الوسيلة للظفر بما
يقيم الأود عند هذا الرفيق أو ذاك .

لم يوجد صالح قط لأنه يملأ المملكة المصرية . وإذا أسرف
الشيء فى الوجود فهو غير موجود ، سواء أراضيت الفلسفة عن
هذا الكلام أم لم ترض . أما أمين فوجود من غير شك ، لأننا
نراه ولا نكاد نرى غيره ، لأنه عظيم الخطر ، فهو هذا الصبي
الذى لا ينام جاثماً إذا أقبل الليل ، ولا يغدو طاوياً على المدرسة

أو على الكتاب ، ولا يطول انتظاره للغداء إذا آن وقت الغداء ، ولا ينبغي أن يطول انتظاره للعشاء إذا أقبل الليل ، لأن من حقه أن يتناول الطعام في إبانه ، وأن يأخذ قسطه من النوم حتى لا تتعرض صحته الغالية لبعض ما يؤذيها . هذا الصبي أو هذا الفتى الذى اتفقنا على أن اسمه أمين موجود من غير شك ، لأنه لا يملأ القرى ولا يملأ المدن ، وإنما هو شخص ممتاز يمكن أن يحصى أمثاله وأترابه إحصاء دقيقاً في كل قرية وفي كل مدينة ، وهو من أجل ذلك موجود ، لأن عدده محدود ، ولأننا نستطيع إحصاءه واستقصاءه والدلالة عليه . وهنا يرتفع رأس القارئ . وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة وبرقت عيناه بريق الانتصار والفوز وهو يسألني في صوت فاتر ساحر : لقد أردت أن تتجنب الإطالة بالإجابة على أسئلتنا ، فهل أنت إلا ممعن في الإطالة بهذا الكلام الكثير الذى لا يعنى ولا يفيد ! معلدة ياسيدى القارئ الكريم ! بل إن هذا الكلام الكثير يعنى كل الفناء ويفيد كل الفائدة . فأنت تلتقى في كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحس لواحد منهم خطراً أو تعرف له وجوداً . قد كثر لقاءك لهم واتصلت معاشرتكم إليهم حتى أصبحت الحياة بينهم شيئاً يسيراً مألوفاً لا يحفل به ولا يلتفت إليه ، وحتى أصبحت معاشرة البؤس والشقاء والحرمان شيئاً تطمئن إليه كما تطمئن إلى الصحة والعافية ، ولا تلتفت إليه كما

أنك لا تلتفت إلى الهواء الذى تننفسه والنور الذى تهتدى به .
وترى أميناً أو أمينين أو أمناء بين حين وحين فيما كل واحد
منهم قلبك وعقلك ويشغل همك وعنايتك . فأيهما خير : أن
ألفتك إلى صالح هذا البائس المسكين الذى ملأ مصر نعمة
وخيراً وملأت مصر حياته شقاء وبؤساً ، أم أن أحدثك عن أمين
وموطنه وبيته وأسرته لتستقيم القصة وتستوى رائعة بارعة ملائمة
لأصول الفن التى رسمها النقاد ؟ أما أنا فأؤثر أن أتحدث إلى
قلبك وما يضطرب فيه من عاطفة وما يشيع فيه من شعور ، على
أن أتحدث إلى عقلك وذوقك وما يثيران فى نفسك من تهالك
على النقد وحب للاستطلاع .

أؤثر أن أتحدث إلى قلبك وأن ألفتك إلى صالح هذا الذى
سجد وأسرف فى الوجود ، حتى اعتقدنا أو كدنا نعتقد أنه غير
موجود . ومن يدري ! لعل حيناً ألفتك إلى صالح وإنما ألفتك
إلى نفسك . وما أحب أن تغضب ولا أن تثور ، فما أردت ،
وما ينبغى أن أريد إلى إيذائك أو التعريض بأنك قد اتخذت
فى يوم من الأيام زهرات الحقول وسيلة إلى خير تصيبه كما
فعل صالح ، وإنما أردت أن أقول إن فى حياة كل واحد
منا نحن كثرة المصريين شيئاً من صالح ، فصالح صورة البؤس
والشقاء والحرمان . وما أقل المصريين الذين لا يصورون بؤساً
ولا شقاء ولا حرماناً ! وليس البؤس مقصوداً على هذه الصفة التى

تأتى من الفقر وما يستتبعه الفقر من الجوع الذى يمزق البطون والإعدام الذى يمزق الثياب ويظهر من ثناياها الصدور والظهور والأكتاف ، ولكن البؤس قد يتصل بأشياء أخرى ليست جوعاً ولا إعداماً ولكنها قد تكون شرّاً من الجوع والإعدام ، لأنها تتصل بالنفوس والقلوب . وإني لأعرف قوماً كثيرين تمتلئ أيديهم بالمال ويعظم حظهم من الثراء حتى يضيقوا به ، وهم مع ذلك يجلسون بؤساً أى يؤس وشقاء، أى شقاء ويتخذون زهرات الحقول أو هذا الزهر الذى تصنفه أيدي الحسان تصنيفاً فى الحواضر والمدن وسيلة إلى شيء يصيبونه عند من يكونون أقل منهم غنى وأضيق منهم ثراء .

مهما يكن من شيء فقد غدا الصبي الذى اتفقنا على أن اسمه أمين على كتابه كما تعود أن يفعل إذا كان الصباح ، فلقى أترابه وشاركهم فى الجلد والهزل وفى الدرس واللعب . حاول أن يحفظ حصته من القرآن فأنصرف عن هذا الحفظ إلى مداعبة اللذات والأتراب . وكان قد أنسى قصة صالح ولم يذكر إلا أنه سيعود معه آخر النهار إلى الدار ، ولكنه اضطرب حين تقدم النهار إلى أن يذكر صالحاً فى كثير جداً من القلق والخوف ، ثم فى كثير جداً من الجزع والهلع ، ثم فى كثير جداً من الألم والحزن ، فقد سمع سيدنا الضرب يسأل عريفة البصير : هل تفقدت الاختتام ؟ قال العريف : نعم . قال سيدنا : وهل سلمت لك

كلها ؟ قال العريف : نعم إلا ختم صالح بن الحاج على فإنه قد ضاع ، وما أشد حاجة هذا الفتى إلى التأديب ، فإنه لا يطيع أمراً ولا يسمع كلاماً ولا يخرج من الكتاب مع العصر إلا لينغمس في الماء .

وهنا يسأل القارئ — وما أكثر ما يسألني القراء كما كانوا يسألون الكاتب الفرنسي الذي ذكرته آنفاً — هنا يسأل القارئ عن هذه الأختام ما هي ؟ وماذا يمكن أن تكون ؟ ولا بد من أن أجيبهم ، فأكثرهم من أبناء هذا الجيل الذين لم يذهبوا إلى الكتاب ولم يعرفوا قصة الأختام والماء ، وقليل منهم قد يعد عهده بالكتاب وما كان يحدث فيه من خطوب . كانت قصة الأختام هذه تمثل في الكتاب كل عام حين يقدم الصيف ويشند القيظ ويحب الصبية والفتيان أن يتردوا بماء النهر أو بماء القناة إذا خرجوا من الكتاب مع العصر أو إذا ذهبوا إلى دورهم للغداء . وكانوا يسرعون إلى نسيان اللقيظ والتبرد متى انغمسوا في الماء وينصرفون إلى العبث والسباحة والاستباق في العوم . وكانت الأسر تشفق عليهم من ماء النهر ومن ماء القناة ، وتطلب إلى سيدنا أن يتخذ ما يرى من وسائل التأديب والتقويم ليصدهم عن هذه الرياضة الخطرة . . وسيدنا قد اتخذ قطعة مستديرة من الخشب واحتفر فيها شيئاً لا أدرى ما هو . فإذا كان الضحى يرتفع أقبل العريف بهذه القطعة من الخشب التي كانت تسمى

الختم وغمسها في مادة حمراء وختم بها أفخاذ الصبية والفتيان الذين كان يظن بهم حب الرياضة في ماء النهر أو ماء القناة . وكان زوال الآية التي يتركها الخاتم في فخذ الصبي أو الفتى دليلاً على أنه قد خالف الأمر وقارب هذا الإثم العظيم . فلم يكن بد إذن من تفقد هذه الأختام في كل يوم وتجديدها إذا محاها طول الوقت ، وعقاب الصبي أو الفتى إذا محيت آية الختم عن فخذة قبل الأوان . ولست أدري أيعرف القارئ أو لا يعرف أن العريف في الكتاب قد كان رمز الرشوة والفساد ، كما أن سيدنا قد كان رمز السذاجة والقسوة . ولكن المحقق أن الصبية والفتيان كانوا يقتربون لإثمهم هذا العظيم في غير اكتراث ، ولا يكادون يخرجون من الكتاب حتى يسرعوا إلى الماء ويلقوا أنفسهم فيه . وكانوا يشترون كذب العريف ورضاه بما يقدمون إليه من هذه الطرف اليسيرة التي يحملونها من بيوتهم ، يسرقونها للعريف أحياناً ويصرفونها عن أنفسهم إليه دائماً . ولم يكن صالح يحمل طرفاً يسيرة ولا خطيرة لنفسه أو للعريف ، وقد طال على العريف إبطاء صالح عليه بالرشوة ، ولم يسأل نفسه أكان هذا الإبطاء عن عجز أم كان عن عمد ومكر . فأراد أن يؤديه فأفشى أمره لسيدنا ؛ ولو أثر الصدق لما خص صالحاً بهذه الوشاية . وكان أمين يعلم هذا حق العلم كما كان يعرفه غيره من أترابه ، ولأمر ما امتلأ قلبه فجاءة خبياً لصالح وعطفاً عليه ورحمة له ،

فلم يكده يسمع العريف البصير يغرى به ميدنا الضرير حتى صاح بأعلى صوته : إن العريف لم يقل لك الحق كله ؛ فليس صالح وحده هو الذى فقد ختمه ، وإنما فقدته الأتراب جميعاً لأنهم يذهبون جميعاً إلى النهر أو إلى القناة ، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف ، فأما صالح فلا يحمل إليه شيئاً . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الشجاعة أن أدبرت الفلقة على ساق صالح وعمل السوط فى رجله حتى دميته ، ثم أدبرت الفلقة على ساق أمين ومسّ السوط رجله مسّاً خفيفاً لم يدمهما ، ولكنه علم أميناً أن الشجاعة والصراحة وقول الحق خصال لا تحسن فى جميع المواطن . . . ولو وقف الأمر عند هذا الحد . هانت الحنة وسهل احتمالها ، ولكن الأتراب والرفاق أعرضوا عن صالح وأمين واتخذوها عدوّاً ، وجعلوا يكيّدون لها ويمكرون بهما ويذيقونهما من العنت فنوناً وألواناً . وقد عاد صالح مع أمين إلى داره لا يكاد يحسن المشى على رجله ، ولكنه وجد عند رفيقه تسليّة وتعزية . ولم تكده أم أمين ترى هذا البائس المسكين حتى رحمته ورقّت له وآثرته ببعض الخير ، ثم أهدت إليه ثوباً من ثياب ابنها ، لم يكده صالح يراه حتى جن جنونه وخرج عن طوره من الفرح ، ونسى الفلقة التى دارت على ساقه والسوط الذى مزق قدميه ، وأقسم ليسرعن إلى الماء ويغسلن نفسه فيه ، وليضيعن آية الختم الحديدية ، وليتعرضن لوشاية العريف ،

وغضب سيدنا ، فما ينبغي أن يلبس هذا الثوب الجميل دون أن يستحم ويزيل من جسمه آثار ذلك الثوب البالي القذر . قالت له أم أمين : لا بأس عليك ؛ فسأطلب من سيدنا أن يعفيك من القلقة والسوط غداً . وانصرف الصبي فرحاً مرحاً محبوراً . وقال أمين لأمه : ألا تنبئني الآن لماذا ضرب سيدنا صالحاً ضرباً مبرحاً حتى أدمى رجله ، ولم يضربني أنا إلا عابثاً ؟ قالت : لأن صالحاً أضاع الحتم وخالف الأمر وانغمس في الماء فكان ذنبه عظيماً يستحق عقاباً عظيماً . فأما أنت فقد خرجت عن حدود اللياقة حين قلت أمام أترابك ما قلت في العريف ، فكنت خليفاً أن تلقى عقاباً يسيراً . قال الصبي : وأنا مع ذلك لم أقل إلا الحق . قالت أمه وهي تضحك : فإن الحق لا يقال في جميع المواطن . قال الصبي : وكيف السبيل إلى أن أعرف المواطن التي يقال فيها الحق والمواطن التي يقال فيها الباطل ؟ قالت أمه وهي تضحك : ستعرف هذا كله إذا تقدمت بك السن ، فأما الآن فانصرف إلى حديدك هذا الذي في زاويتك تلك والعب به ، وتحدث إليه حتى تدعى للعشاء .

وذهب أمين إلى حديدته فلبب به ، وتحدث إليه وأحدث من الضجيج والمعيج ما شاء الله أن يحدث ، ولكنه انصرف عن حديدته وزاويته وسعى إلى أمه يسألها : ما بال صالح لا يحمل إلى العريف مثل ما يحمل إليه غيره من الطرف والمخدايا ؟

قالت أمه : لأن صالحاً فقير معدم لا يجد ما يقوت به نفسه فضلاً عن أن يجد ما يهدي إلى العريف . قال أمين : ولماذا كان صالح فقيراً معدماً لا يجد ما يقوت به نفسه وما يدفع به شر العريف ؟ قالت أمه وقد أخذت تضيق بإلحاحه : لقد عدت إلى ثرثرتك فامض لشأنك ولا تثقل على . ولكن الصبي لم يمحض لشأنه وإنما مضى في الانتقال على أمه ، فلم تتخلص منه إلا حين أظهرت له الغضب وأنذرتة إنذاراً كاد يبيكي له ، ثم رحمته فوضعت في يده قطعة من النقد وهي تقول : اذهب فاشتر بهذا شيئاً من الحلوى . قال الصبي مبتهجاً : سأشتري بنصفه شيئاً من الحلوى وسأدفع نصفه الآخر إلى صالح ليؤديه إلى العريف إذا كان الغد . ثم انصرف يعدو وقد ارتفع صوته بالغناء .

ولكن أميناً لم يدفع نصف القرش إلى صالح ؛ لأن صالحاً لم يذهب إلى الكتاب من غده . وقد وقع في نفس الصبي شيء من الغيظ ثم من الحزن حين التمس رفيقه فلم يجده ، وحين انتظر مقدمه فلم يقبل حتى ارتفع الضحى ، وحين استيقن أن صالحاً لن يلم بالكتاب من يومه ، ثم لم يلبث أن تسلى عن صالح وغيبته بمداعبة الرفاق والأتراب . ثم لم يكده يفرغ من غدائه بين سيدنا الضرير وعريفه البصير حتى خرج ليشهد صلاة الظهر فيما زعم ، ولكنه اشترى بنصف القرش هذا السخف الذي

يحببه الصبية ، وعبث مع أترابه حول المسجد ، وعاد معهم إلى الكتاب وما يشك سيدنا وما يشك عريفه في أنه قد شهد الصلاة . وانقطع صالح عن الكتاب يوماً ويوماً ، ثم أقبل ذات صباح كئيباً محزوناً لا يكاد قلده يستقيم من الضعف . ونظر أمين فإذا هو في ثوبه ذلك البالي القدر . وقد تلقى أمين رفيقه مبتسماً به حفيماً به مستنبئاً عن غيبته تلك التي طالت . وهم صالح أن يجيب ، ولكن صوته احتبس في حلقه وجرت على خديه دموع منسجمة غزار ، فبهت أمين لأنه لم يعرف البكاء الصامت قط ، ولم يقدر أن الصبية يمكن أن يكونوا دون أن يمسه سوط سيدنا أو دون أن يعنف بهم الآباء والأمهات ليؤدبهم بالأيدى حيناً وبالكلام أحياناً . ثم استبان لأمين من أمر رفيقه ما ملأ قلبه حزناً ودفعه إلى كثير من الحيرة والشك والاضطراب . فقد كان الثوب الذي أهده أمه لرفيقه مصدر شقاء عظيم وضرر مُلح لهذا الرفيق البائس .

خرج صالح بثوبه الجديد مسروراً مجبوراً تكاد ساقاه تسبقان الريح علواً ، ويكاد صوته المرتفع بالغناء يُسكت الطير التي كانت ترقص على أغصان التوت وتنشر في الجو ألحانها العذاب ، وانغمس في القناة كأحسن ما تعلم أن ينغمس ، وعام في القناة كأحسن ما تعود أن يعوم ، فبذ الأتراب وتفوق على الرفاق ، وخرج من القناة فرحاً مرحاً مبهجاً مغتبطاً ، وقد

امتلات نفسه رضىً وامتلاً قلبه سعادة ، وفاض من نفسه الرضية
 وقلبه السعيدة على جسمه جمال غريب لفت إليه أصحابه وأترابه ؛
 وقال بعضهم لبعض : ما رأينا صالحاً كما نراه اليوم ، حسن
 المنظر رائع الطلعة قد امتلأ قوة وحياة ونشاطاً . ثم دخل في ثوبه
 الحديد ، وكاد السرور أن يدفعه إلى شيء من الغرور ، ولكن
 الحياء اضطره إلى بعض القصد وأمسكه في بعض الاعتدال ،
 فرضى عن نفسه في دخيلة ضميره ، وارتفعت إليه أبصار أصحابه
 بألوان من الغبطة والحسد ومن العطف والبغض .

وعاد مع مغرب الشمس إلى داره يكاد يخطر في ثوبه
 الحديد وقد طوى ثوبه البالى القنر وحمله بين زراعيه وجنبه متأذياً
 متكرهاً لاحتاله ، ولو استطاع لتركه في بعض الطريق ، ولكنه
 كان أذكى من ذلك قلباً وأصدق من ذلك فطنة ، فاحتمل
 ثوبه ذلك البالى إلى امرأة أبيه لعلها تستطيع أن تصنع منه شيئاً .
 وما أشك في أن القارئ سيقف عند هذا الموضع من
 الحديث ، وسيسأل نفسه ولو استطاع لسألنى أنا : ألم يكن من
 الخير أن نعرف من أول القصة أن صالحاً قد فقد أمه وأنه كان
 يعيش يتيمًا ينعم بما يختلس من حب أبيه سرّاً ويشقى جبهة بما
 يصب عليه من بغض هذه الضرة التى قامت مقام أمه في
 البيت ؟

ولست أشك في أن القارئ سيفيض إلى هذا السؤال

ملاحظة فيها شيء من القسوة والسخرية والغيظ فيقول في نفسه :
لو أن الكاتب سلك في قصته هذه الطرق الممهدة والسبل المعبدة
التي رسمها النقاد للقصّة لعرّف إلينا صالحاً في أول حديثه ولأنبأنا
بموت أمه وتزوج أبيه ، ولأعفانا من هذه المفاجأة التي لم نكن
في حاجة إليها . ولكنني أعيد على القارئ ما قلته آنفاً من أني
لا أضع قصة ؛ وإنما أسوق حديثاً ، وأضيف إلى ذلك أن الذين
يسوقون الأحاديث لا يقدمون بين يديها هذه المقدمات التي
يبيتون فيها الموطن والبيئة والأسرة والزمان والمكان إلى آخر هذا
الكلام الكثير الفارغ الذي يلهج به النقاد، ولو أني بدأت هذا
الحديث برسم واضح دقيق لشخصية صالح وأمين ومن يتصل
بصالح وأمين من الناس ، لضاق القراء بهذه المقدمات أشد^١
الضيق وإقال بعضهم : تجاوز حديث الطوفان وصل إلى غايته
فلسنا من الغباء والغفلة بحيث نحتاج إلى كل هذا التمهيد .

وبعد فمن أنبأ القارئ بأن صالحاً يتيم وبأن أمه قد ماتت ؟
الشيء الذي لا أشك فيه ولا ينبغي أن يشك فيه القارئ هو
أن صالحاً لم يكن يتيماً ، وأن أمه لم تكن ميتة ، وإنما كانت
حية أكثر مما ينبغي أن يحيا الناس ، إن صح أن تكثر الحياة
وتقل . وسواء رضى القارئ أم لم يرض فقد كانت أم صالح
حية من غير شك ، لأنني أنا أريد ذلك ، وليس يعني ما يريده
غيري من الناس ، فأنا الذي اخترع صالحاً من لا شيء ، أو

أخذ صالحاً من عرض الطريق ، لأن صالحاً موجود ولأنه غير موجود ؛ موجود في حقيقة الأمر ، لأننا نراه في كل ساعة وفي كل مكان ، وغير موجود في حقيقة الأمر أيضاً لأنه يملأ المدن والقرى ويسرف على نفسه وعلى الناس في الوجود . والشئ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، كما يقال ؛ فأنا إذن وحدي — كما كان يقال أيضاً — أعرف من أمر صالح ما لا يعرف غيري من الناس ، وأقرر أن أمه لم تترك الدار لأنها ماتت ، وإنما تركت الدار لأنها طلقت . وأنا أستطيع أن أصنع بأمه بعد هذا الطلاق ما أشاء : أستطيع أن أدعها مطلقة تعمل خادماً في بعض الدور ، وأستطيع أن أجدها زوجاً تعيش معه سعيدة موفورة ، وأستطيع أن أسخرها لعمل من هذه الأعمال التي يعيش منها أمثالها من البائسات ، فقد أسخرها لبيع الخضر ، وقد أسخرها لبيع الفاكهة ، وقد أكلفها أن تصنع الخبز في بيوت الأغنياء وأوساط الناس ، وقد أكلفها أن تغسل الثياب في هذه البيوت ، وقد أجدها ما أشاء من الأعمال غير هذا كله ، لأنني حر فيما أحب أن أسوق إلى القارئ من حديث ؛ ولأن القارئ مضطر إلى أن يتلقى حديثي كما أسوقه إليه ، ثم هو حر بعد ذلك في أن يقبله أو يرفضه ، وفي أن يرضى عنه أو يسخط عليه . والواقع من الأمر أني لا أكلف أم صالح شيئاً من هذه الأعمال التي ذكرتها ، ولا أفرض عليها شيئاً من هذه الخطط التي

رسمتها ، لأني على حريتي في أن أصنع بها ما أشاء ، أوتر الأمانة في رواية التاريخ ، وقد حدثني التاريخ بأن خديجة أم صالح قد كانت شاذة الخلق سيئة العشرة ، وبأن الحاج علياً أبا صالح لم يكن ظالماً ولا جائراً حين طلقها بعد أن ولدت له صالحاً بعام أو عامين . فقد كان هذا الرجل طيب القلب سليم النفس ، لا يحب شيئاً كما يحب الدعة والهدوء . وكانت امرأته خديجة أم صالح منكورة الخلق بغیضة العشرة كثيرة الكلام شديدة الصياح ، لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء ، فاضطر هذا الرجل البائس إلى فراقها ، واستبقى ابنه صالح في كنفه ، وحاول أن يفرغ له ويقوم على تربيته فلم يستطع ، لأن خطوب الحياة تكلف أمثاله أن يعملوا ليعيشوا . ولم يكن من الممكن أن يعمل الرجل لكسب القوت وأن يفرغ لتربية ابنه ، وهو بعد ذلك رجل من الناس لا يستطيع إلا أن يعيش كما يعيش الناس ، فاضطر إذن أن يتخذ لنفسه امرأة تربي له صالحاً وتمنحه غيره من الولد ؛ واتخذت خديجة لنفسها زوجاً يعينها على الحياة ويعوضها من صالح هذا الذي احتجزه أبوه لأنه اشترى القاضى بأرطال من البن . وماذا تريد أن أصنع وقد كانت الحياة تجري على هذا النحو في ذلك العهد القديم .

وليس أدل على أن أبا صالح قد كان معذوراً حين فارق امرأته ، من أن خديجة قد اضطرت زوجها الثاني إلى أن يطلقها

بعد أن وهبت له غلاماً أسماه سعيداً ، وهو قد فارقها لتلك الأسباب التي فارقها من أجلها زوجها الأول ؛ فقد كانت سيئة العشرة بغیضة الخلق كثيرة الكلام مرتفعة الصباح لا ترضى بشيء ولا ترضى عن شيء . ولكن حظها في هذا الطلاق الثاني كان حسناً أو سيئاً لا أدري ! فما أكثر ما تختلط أهـور الناس على الأذكیاء حتى لا يفرقوا بين الخير والشر ، فكيف بمن كان مثلي قليل الحظ من الذكاء لا يفرق بين السعادة والشقاء ! والشئ المحقق هو أن خديجة لم تكـد تطلق حتى مات زوجها وترك لها سعيداً تربيـه كما تشاء أو كما تستطيع ؛ ولم تربيـه كما شاءت أو كما استطاعت ، وإنما ربته الطبيعة كما أحببت . وقد زهد الأزواج في هذه المرأة ذات العشرة السيئة والخلق البغيض ، وثقلت الحياة على هذه المرأة ذات الحيلة الضيقة والعقل الكليل ، فباعـت الفجل حيناً والتزمس حيناً آخر ، ثم اختلط الأمر عليها فجنت جنوناً هادئاً رقيقاً ، عطف عليها القلوب وأخاف منها الناس ، فسميت «خديجة المعفرة» وعاشت من إحسان المحسنين . وبينما كان ابنها سعيد ينمو في ظل هذا الجنون الهادئ الخفيف ، كان ابنها صالح ينشأ في ظل هذه الضرة التي أظهرت حباً له وعطفاً عليه ، ثم رزقت البنين والبنات فأظهرت بغضاً له وضيقاً به . وكذلك نشأ أحد الأخوين في حماية البغض العاقل ، ونشأ الآخر في رعاية الحب المجنون .

حدثني أبيها القارئ العزيز أكان من الخير أن أعرض عليك تفصيل هذا كله ، في أول هذا الحديث فتضييق بي وبصالح وبأمين وبالسفر الذي يحمل إليك هذا الحديث ، أم كان الخير أن أذهب إلى المذهب اليسير الذي اخترته ، وأن أحدثك بكل شيء حين يحين التحدث به إليك ؟ أنا أعرف أنك ستعاند وستمارى ، وستذهب في عنادك ومرائك مذاهب مختلفة ، فأنت وما تشاء . أما أنا فقد ذهبت المذهب الذي اخترته ، وحديثك بالأمر على النحو الذى آثرته ، وانتهيت منذ حين إلى أن صالحاً قد استحم في القناة ودخل في ثوبه الحديد وعاد إلى امرأة أبيه مسروراً بهذا الثوب الذى لبسه مهدياً ثوبه القديم الذى ضمه بين ذراعيه وجنبه .

ولكن امرأة أبيه نظرت إليه من رأسه إلى قدمه ، فرأت ثوبه الحديد ورضيت عنه ، ورأت ثوبه القديم وضافت به ، ثم أدارت بصرها في الحجرة ، فرأت ابنها وبناتها قد اتخذوا ثوبين باليين كذلك الثوب القديم ، يبديان عن الكتفين كما يبديان عن الظهور والصدور ، ثم ردت النظر إلى صالح في ثوبه الحديد ، ثم أعادت النظر إلى ابنيها في ثوبيهما القديمين ، ثم ارتدت عيناها إليها وقد ارتسمت في نفسها الخطة واضحة جليلة ولكنها بشعة بغیضة ؛ فإن هذا الثوب الحديد لم يخلق لصالح ، وإنما خلق لابنها محمود . ولم يشرق الصبح من غد حتى كان صالح قد

لتي من أبيه ومن امرأة أبيه نكراً ، فضرب ضرباً مبرحاً مرض له أياماً ، وجرد من ثوبه الحديد الجميل ورد إلى ثوبه القديم البالي ، وعجز الفتى عن الذهاب إلى الكتاب من غده ، وأقام في الدار ملقى في زاوية من زواياها يهمل في ازدراء ويمرض في عنف ، حتى إذا استطاع أن يمشي على قدميه سعى إلى الكتاب ليشقى فيه ببغض العريف وقسوة سيدنا ، ولينعم فيه بعشرة أمين .

كذلك عرف أمين قصة رفيقه البائس ، فلم يلبس عقله الناشئ كيف يقضى في هذه القصة . لو أنه لم يتحدث إلى أمه عن ذلك الثوب البالي الذي كان صالح يلبسه لما أهدت أمه إلى صالح ذلك الثوب الحديد ، ولمضت أمور صالح على ذلك البؤس الهادئ المطرد . فهو إذن قد أراد أن يحسن إلى رفيقه فأساء إليه . أيلوم نفسه في ذلك أم يلتمس لها المعاذير ؟ والحق أنه لم يلم نفسه أو يعذرهما ، وإنما فرغ لصاحبه يعزيه ويسليه ، وحدث نفسه بأن أمه الكريمة الرحيمة قد تجد بين ثيابه ثوباً آخر تكسو به رفيقه المسكين . ولكن القارئ يخطئ أشد الخطأ إن ظن أن الحياة تجري دائماً على هذا النحو المألوف من المنطق وتلائم دائماً ما ألف الناس من التفكير والتقدير ؛ فليست الحياة أقل منى ثورة على الأصول الموضوعية والقواعد المرسومة والخطط المدبرة ، وإنما الحياة تمضي كما تريد هي لا كما يريد الناس . وقد راح صالح وأمين من الكتاب مساء ذلك

اليوم . فلم يرعهما حين بلغا ذلك المكان الذى تمتد فيه الخطوط الحديدية من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، إلا جماعة مزدحمة تتصايح ويدعو بعضها بعضاً ، ولم يبلغا هذه الجماعة حتى رأيا منظراً راعهما وروعهما : جثة قد شطرت شطرين وألقى عليها ثوب غليظ يستر بشاعتها عن العيون ، وامرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتشر في الفضاء ضحكاً عريضاً ؛ فأما الجثة فكانت جثة سعيد أكلها القطار ، كما كان يقال في تلك الأيام ؛ وأما المرأة فكانت خديجة تدفعها الغريزة إلى الجزع ويدفعها الجنون إلى الضحك ؛ وأما صالح فنظر إلى أخيه ونظر إلى أمه وهم أن يقف ولكنه آثر أن يمضي مع رفيقه كأنه لم ير شيئاً . ولست أدري ما صنع الرفيقان ، ولكني أعلم أن أبا أمين راح إلى أهله حين تقدم الليل وهو يقول محزوناً : لقد كانت القطر شرهة منذ اليوم ، أكل أحدها سعيداً مع الظهر وأكل الآخر صالحاً مع الليل ، وفقدت « خديجة المعفرتة » ابنها في يوم واحد . ثم التفت فرأى ابنه أميناً مذعوراً يكاد ينقد من البكاء ، فمسح على رأسه وقبل بين عينيهِ وقال له في صوت رفيق : لن تغدو على الكتاب إذا كان الصبح ، لأنك ستذهب إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم .

قال أمين بعد أن تقدمت به السن وأصبح رجلاً ذا خطر : ما زلت أرى تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ ، ولكني أنظر

إلى وجهها فلا أرى وجه سعيد وإنما أرى وجه صالح ، ومع ذلك فلم أر صالحاً حين أكله القطار .

٢-٢

قاسم

كان يسعى في ظلمة الليل القائمة ، قد هدأ من حوله كل شيء ، وجثم على الكون سكون رهيب مرهق ، ولو قد رفع رأسه إلى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة متثرة ، ولكنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه إلى الأرض ، وإنما كان يمضي أمامه يعد بصره كأما يريد أن يخرق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وإنما كان أشبه شيء بقطعة من الجهاد قد صورت في صورة إنسان ، واو قد عدا أو أسرع الخطو لجاز أن يشبه بسهم حتى يشق هذه الظلمات المتكاثفة أمامه ، ولكنه لم يكن يسرع الخطو ، كان يسعى هادئاً مطمئناً ، يتردد في سعيه كأنما تدفعه إلى أمام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رقيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شيء وإنما يمضي إلى غايته كما يمضي الزمان إلى غايته ، في أناة ومهل وحزم . ولو كان شاعراً أو راوية

للشعر أو على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع الوردية التي تشير إلى ظلمة الليل بأن تنجلي ، أو لتصور سهماً ضئيلاً من الفضة النقية يمضي في هذه الظلمات المتكاثفة ، فتتهزم أمامه هذه الظلمات مهالكة وتساقط أمامه نجوم السماء في الأفق الغربي كأنما يدعو بعضها بعضاً إلى الفرار ، ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق وراء النهر ، وسمع صوتاً قد أقبل من ورائه في الجو ضئيلاً نحيلاً ماضياً أمامه إلى الشرق ، كأنما يريد أن يلتقي بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طويلاً وينبسط عرضاً حتى أحس كأن الجو كله قد أخذ يمتلئ نوراً وغناءً ؛ فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينبئها بمطلع الفجر ، وأما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ، ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً أو حديثاً ؛ لأنه لم يكن من هذا كله في شيء ، ولم يكن يقلد أن شيئاً من هذا كله يمكن أن يوجد أو يخطر لأحد على بال ، وكل ما في الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : إنك تسعى في ظلمة الليل فتطيل السعي ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها في قلبك أو في لسانك ؛ فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم قرأ الآية الكريمة : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

القلوب . فكان لا يخرج من بيته الحقيق المتضائل ساعياً إلى
النهر في ظلمة الليل ، إلا ترددت هذه الآية في صدره تردداً
متصلاً ، فلأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً ؛ فإذا أحس نبأ
من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه
إلى لسانه واندفع بها صوته إلى الفضاء ، فأمن كل كيد وجنب
كل مكروم .

وكان في تلك الليلة يمضي أمامه ، تؤنس قلبه هذه الآية
التي تردد فيه . فلما رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم
يذكر شيئاً ، وإنما كف عن التلاوة وسأل نفسه مسرعاً :
أيمضي إلى النهر أمامه ، أم يرجع إلى المسجد وراءه حتى إذا
أدى الصلاة مضى إلى النهر ، فاستخرج منه ما يسوقه الله إليه
من رزق ؟ ولم يشك طويلاً حين ألقى على نفسه هذا السؤال ،
وإنما استدأر إلى المسجد فأدى صلاته لم يكلم أحداً ولم يكلمه
أحد ، ثم استأنف سعيه إلى النهر هادئاً مطمئناً وحيداً ، لا يذكر
شيئاً ولا يكاد يفكر في شيء ، وإنما هو قطعة جامدة قد
صورت في صورة إنسان تمضي أمامها في أناة ومهل ، لا تنظر
في السماء ولا تنظر في الأرض ، ولا تلتفت إلى يمين ولا إلى
شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ؛
وإنما خرجت من ذلك البيت الحقيق وسعت إلى ذلك النهر
العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق ؛ فلم يكن قاسم

شاعراً ولا راوية شعر ، ولا محباً لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن الليل جلالاته وأن للنهار جمالاته ؛ فلم يكن قاسم إلا رجلاً جاهلاً بائساً مريضاً ، يلتمس في النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته وأمونه ، وابنته وسكينة في بيته ذلك الحقير . ولولا أن قاسماً كان يردد في صدره هذه الآية ، ويؤدى صلاة الفجر إن أدركته وهو في طريقه إلى النهر ، ويفكر أيسر التفكير وأهونه في بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه وأهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئاً غريباً خالصاً يشبه سعى النمل والنحل إلى أرزاقها .

وقد كان قاسم عليلاً قد نهكه المرض ، وكاد يسيل جسمه سلاً ، ومن أجل ذلك لم يكن يحمد ولا يكدر ولا يضطرب في شئون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وإنما كان ينفق أيسر الجهد لمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة . يسعى إلى النهر بين حين وحين ، فإن ساق الله إلى شبكته شيئاً من السمك باعه في غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغفل ذلك عليه من نقد فاشترى في كثير من الفتور والسأم ما يصلح أمره وأمر زوجته وابنته ، ثم يعود بذلك كله إلى البيت فيلقيه بين يدي أمونة إلقاء ، ويسعى متخاذلاً منهالكاً إلى حصير بال رث قد ألقي في ناحية من نواحي البيت ، فيمتد عليه ضيلاً نحيلاً يكاد السقم يفنيه إفناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق

كلمة ولا يفكر في شيء حتى تهبط امرأته ما يمكن أن تهبط من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثهم منه ما يصيبون . وما أكثر الليالي التي لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتنقل عليه العلة فيستقر في مكانه مثبتاً لا يأتي حركة ولا ينطق بكلمة ، وفي نفسه ما فيها من حسرة وألم إن استطاعت نفسه أن تحس حسرة أو ألماً ؛ وربما كلف نفسه فوق ما تطيق ، وحمل جسمه أكثر مما يحتمل ؛ ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعي ، وبلغ النهر فوجده كريماً بالقياس إلى غيره من الناس ، بخيلاً بالقياس إليه ، فعاد إلى بيته مكدوداً محزوناً ، صفر اليدين ، وألقى إلى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى إلى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئاً .

هناك كانت أمونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار أو تلك تعين أهلها من أمرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ، وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع .

في ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد أن أدى الصلاة ، فسمي إلى النهر مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد أن تصور الراحة والرضا فلا تستطيع أن تصور إلا حزناً هادئاً فيه شيء من أمل يسير . وقد صادف

النهر كريماً في ذلك اليوم ، وساق الله إليه رزقاً حسناً ، فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكده يحس ثقلها ولم يكده يرى طولها وعرضها حتى اضطرب في قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التي كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع في عينيه الصغيرتين نور متهالك ضئيل ، ثم أحس أنه لن يستطيع أن يحمل صيده إلى أمد بعيد ، فأقام أمامه ينظر إليه حيناً وإلى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه إلى السماء بالشكر حيناً ، ويتنظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد إلى بيت العمدة ؛ فقد استقر في نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل أنه لا ينبغي أن يباع في السوق ، وإنما ينبغي أن يحمل إلى بيت العمدة ، هذا الرجل الموسر الذي يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل إلى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به مع الصباح من كل يوم وأخذت تكنس فناء الدار وترده إلى هيئته التي ينبغي أن يكون عليها ، فتصفف الكراسي في أماكنها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التي كانت تمتد في صدر الفناء ، ونهشها لمجلس سيدنا حين

يقبل مطلع الشمس ليقراً السورة ويشرب القهوة ويتحدث إليها حديثاً يطوله حيناً ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من عجلة أو ريث . وإن الفتاة لفي ذلك وإذا بالباب يطرق طرقة خفيفة ، فإذا فتحتة رأت قاسماً حزيناً تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل ، ومن ورائه غلام يحمل عنه عبثه . فحيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعوا صيدهما العظيم على هذه الدكة في صدر الفناء . وقال قاسم في صوته الخافت المريض : ما أشك في أن السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم صاحبه أن ينصرف ، ولكن الفتاة ألقت في يده شيئاً قبله راضياً وولى محبوراً . وهم قاسم أن ينصرف ولكن الفتاة أشارت إليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت إليه بقليل مما يؤكل ويقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو في ذلك وإذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل في كل صباح متكلفاً شيئاً من العنف في دفع الباب أمامه رافعاً صوته بدعاء ربه الستار ، يريد أن ينبي الأسرة بمقدمه ، حتى إذا أغلق الباب وراءه في غير وفق سعى إلى دكته في صدر الفناء ، ولكنه لم يكده يجلس . حتى وثب مرتاعاً وجلاً ، قد تملكه ذعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا في أي عضو من أعضائه يظهر ؛ فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتجيئان في الهواء ، وفه مفتوح عن أسنان متحطمة وصوته يتردد في حشجة بين جوفه وشفتيه .

ويرى قاسم وترى الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الذعر ،
 فيدفعان إلى ضحك عال متصل . ويثوب سيدنا إلى نفسه وقد
 أمن بعد خوف وظن أن فتيان الدار-وفتياتها قد كادوا له الكيد ؛
 حتى إذا علم آخر الأمر أن أحداً من أهل الدار لم يهَيءْ له
 كيداً ، وإنما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة في غير موضعها ،
 وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهَيءْ له
 مجلسه ، تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن
 الفتاة ، ثم جلس على كرسى وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب
 قهوة قبل القراءة لا تغنى عن قهوته تلك التى تعود أن يشربها
 متى فرغ من التريل وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو
 ينهض للانصراف : إن حكمة الله بالغة ، لقد ضحكتما منى
 وأضحكتما من نفسى ، ولكن الله قد أراد بى خيراً ؛ فلن
 أتكلف لأهلى طعاماً منذ اليوم ؛ أنبئى السيدة يا ابنتى بأن هذه
 السمكة قد ملأت قلبى رعباً ، وبأنى أنتظر منها نصيبى حين يتقدم
 النهار ، وما أشك فى أنكم ستتخذون منها ألواناً مختلفة ، وما
 أرضى أن ترسلوا لى لوناً واحداً وإنما يجب أن أصيب من هذه
 الألوان جميعاً . وانصرف الشيخ الضرير راضياً عن نفسه مستبشراً
 بهلما اليوم الذى يسر الله فيه رزقه حسناً دون أن يسعى إليه .
 والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعلى

تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت أن تستقبله ، يعمل بعضها ويكسل بعضها ، والصائد في مكانه لا يبرحه لعله نسي نفسه ، أو لعله ينتظر ثمن صيده ، أو لعله قد أنس إلى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همهم وسقمهم . ومهما يكن من شيء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولاً حسناً ووضع في يده قروشاً ، وخرج الصائد راضياً مغتبطاً ، ولكنه لم يمض إلى داره وإنما استدار وذهب إلى السوق .

والقارئ يستطيع أن يلاحظ أننا قد انتهينا إلى مفرق من مفارق الطرق في هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه إلى السوق التي ذهب إليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب إلى هذه الدور ، التي يلم بها سيدنا كل صباح ليقراً القرآن ، ويشرب فيها القهوة ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلتقي فيه من أقذاح القهوة المرة ؛ ثم أذهب معه إلى الكتاب الذي سينتهي إليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسماً يشتري في السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهي إلى الكتاب ، وأن أقيم في الدار لا أبرحها ، وإنما أتبع السمكة إلى حيث نقلت من الفناء واستقرت في مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الكوانين التي تختلف

سعة وضيقاً وارتفاعاً وانخفاضاً، وأشهد إقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطعنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام . ولكنى لن أقيم فى الدار ، ولن أتبع قاسماً، ولن أتبع سيدنا، وإنما سأخرج من الدار، وسأنحرف إلى الشمال فأسعى حيناً ، ثم أنحرف إلى الشمال مرة أخرى فأسعى قليلاً ، ثم أنحرف إلى يمين فأمضى أمامى خطوات ، ثم أجد فى أقصى هذه الحارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين، لا من الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن، وإنما اتخذت من الطين الذى سويت قطع منه تسوية ما ، وخلط بها شىء من القش والتبن ، ورصّ بعضها إلى بعض حتى ارتفعت فى الجو ارتفاعاً ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ، ثم ألقى عليها شىء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب فى فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها باباً ، فهذا البيت هو الذى أوثره على السوق وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حديث ، وعلى الكتاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سداجة ومكر .

أوتر هذا البيت الحقير لأنى أحب أن أجد فيه أمانة وابنتها سكيئة وقد استقبلتا النهار بائستين كما استقبلتا الليل بائستين ؛ أحستا قاسماً وهو ينهض مثاقلاً يحمر قلميه ، ويغلق الباب الضئيل

من ورائه ، وينغمس انغماساً رقيقاً مستأنياً في ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيه رزقه ورزقهما ، أحسنا نهوضه في جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولاً له شيئاً . ولم تنهضان ؟ وما عسى أن تفعلنا ؟ ولم تقولان ؟ وما عسى أن تقولنا ؟ مضى قاسم وأقامتا ، واشتملهما الليل ساكتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعياً . وأسفر الصباح لهما ساكتين قائمتين كما أسفر له ساعياً إلى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس ، فجلست كل واحدة منهما في مكانها واجمة لا تدرى ما تصنع ولا تعرف ما تقول ، وظلتا تنتظران قاسماً لعله يعود إليهما بشيء من خير . وقد جرت العادة إذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئاً من خبز جاف تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا إلى الجارات .

وسكينة فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سداجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبلى على الفتاة من الضر ، وفي جسمها تناسق وفي قدها اعتدال يظهر أن الناظر دون أن يتكلف التماساً ؛ فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها إلا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجومهما في ذلك الصباح لم يتصل إلا قليلاً . وقد

قالت أمونة لابنتها فجاءة في صوت فاطر منكسر : ألم تنهضى وتركى البيت بعد أن خرج أبوك إلى النهر بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكنى عدت بعد لحظة . قالت أمونة : فإنى قدرت ذلك وانتظرت أن تعودى بعد لحظة ، ولكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج فى التماسك ولكنى أكرهت نفسى على البقاء مخافة أن يفطن إلينا الجيران ؛ وما زلت أنتظرك وأنتظرك حتى أسفر الصبح ، وإذا أنت تقبلين مرفقة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعك حريصة على ألا أحسّ مقدمك كما كنت حريصة على ألا أحسّ انسلاك من البيت ؛ فإلى أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينه حديث أمها مرفوعة الرأس أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعضلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انكباً ؛ وليست الفتاة صامته لا تقول شيئاً ، جامدة لا تأتى حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث . هنالك تنمرت أمونة وظهر فى وجهها شيء من الجدل لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف ، وقالت لابنتها فى صوت مكظوم : ستنبئينى إلى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى إلى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف

النخيل كانت تصطنعه في تقليب الحيز وإنضاجه ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس ، وهي تقول لها في صوتها المكظوم :
ستنبئيني أين كنت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخذ يقع ما بين كتفها في عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها إلى الوثوب لولب في الأرض ، أو جذبها إلى الوقوف سبب في السقف ؛ على أن وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، وإذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها إلى وجهها . وهي تتلوى من الألم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمانة ؛ فإذا هي لم تبق امرأة ، وإنما استحالت إلى جنية ناثرة ، وقد ألقت العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين بديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها في غير رفيق وتدفع بقدميها وجهها في غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقى أمانة نفسها على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبثها في صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت إذا لم تكظم صوتها ولم تضبط نفسها ، ولم تنبثها في هدوء وصدق إلى أين ذهبت ، وماذا صنعت حين انسلت من البيت في ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ولهذا

الضغط المتصل على فيها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل أمها واستوت جالسة ، وظهر في وجهها هدوء حازم عنيد ، ودفعت يد أمها عن فيها وقالت في صوت مكظوم كصوت أمها ولكنه ينم عن التحدى والعناد : تريدن أن تعلمي إلى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت في ظلمة الليل ؟ فاعلمي إذن أنني لقيت زوج عمي غير بعيد من مزرعته ، وأقمت معه ما أقمت ، ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر . أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت ؟

وجمت أمونة شيئاً ثم قالت مستخذية : ومتى لقي الفتيات أزواج عماتهن في جنح الليل ؟ إنك لتلقينه متى شئت في وضح النهار . قالت الفتاة : ألقاه في وضح النهار وألقاه في ظلمة الليل ؛ ذلك شأنه وشأني ، وما أنت وذاك ؟ فإنه لا يعنيلك من قريب ولا من بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها بصوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عني أو أستغيث بالخيران ! قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الخيران ؟ يا للفضيحة ! يا للعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب ؛ وظلت الفتاة في مكانها وابحة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أجفانها فأتهل على وجهها دمع غزير !

وفى القارئ حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضى فى كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذى يعرضه أو يقول فيه . والقارئ لا يكتفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاة قد تغفلت أمها وانتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها فى ظلمة الليل ، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد ما ذاقت من عذاب بأها خرجت لغى لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمها لثم بغیض .

القارئ لا يكتفى بهذا ، وإنما يجب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ورجل قد جاوز الشباب وهو زوج عمها . ولولا أنى أرفق بالقارئ ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أردّه خائباً حين يحب الاستطلاع ، لمضيت فى الحديث كما بدأت ، ولأبيت الانحراف إلى نشأة هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغیض ؛ ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب فى كتابته ، ولكن من حق القارئ أيضاً أن يفهم فى وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكتاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارئ أن قد كان لقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغى

أن يعرف القارئ الآن أن قد كانت لقاسم أخت فاتنة لعوب ،
 خلبت عقول كثير من الشباب حين واثاها الحظ وابتسمت لها
 الدنيا واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى
 عن كثير من الناس ، وأصاب جسمها ذبول ، وألم بجهاها ذواء
 حين دخلت في الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة
 أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير ، لولا
 أنها صادفت الحاج محموداً ، وكان رجلاً يقيم في طرف من أطراف
 المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من
 الأرض يستغلها في استنبات البقول ؛ وقد لعبت الأيام بالحاج
 محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شيء من
 الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على
 الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زى من وقار ومسحة
 من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر في حياة مطمئنة
 لا يظهر أحد منها على بأس . وكان غريزته كانت أقوى من
 إرادته ، وكان ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ،
 وكان دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد
 حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجاعة والطمع ، فكان يمشى
 في المدينة زائع الطرف يدير عينه يميناً وشمالاً ، ويقصر بصره
 إلى هنا ويمد بصره إلى هناك ، وكان كل شيء في قلب
 وجهه واضطراب بصره يدل على أن في نفسه طموحاً إلى الشر

ونزوحاً إلى ما لا يستحب من الأمر . وكان قاسياً على أخى امرأته ، يرمقه في ازدراء ويتحدث عنه في استخفاف ، ولا يمد إليه يداً بالمعونة ولا يظهر إشفاقاً عليه مما كان يبظه من الفقر والبؤس والداء ؛ ولكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة في قوة وجمال وفي بؤس وشقاء أيضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وإنما اشتى جمالها وطمع في محاسنها ، وابتغى إليها الوسائل . وما أكثر وسائل الإغراء للذين يبظههم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيها كثير جداً من الأمل إلى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون في المدن والقرى يحملون هذه السخافات التي تطمح إليها نفوس البائسين من أهل المدن والقرى ، يحملون حقيقة فيها هذا الصمغ الذي يمضغ في الأفواه ويسميه أهل القرى « لبناً » ويسميه المترفون من أهل المدن « لادناً » ، ويحملون حقيقة أخرى فيها صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلفن بهذه السخافات ، يتخذن من الخرز عقوداً ، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والأساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه في أفواههن ويحدثن في مضغه بين حين وحين صوتاً يفتن به الرجال المكتملين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقّت نفسها بشيء من هذه

السخافات بين يدي رجل من هؤلاء الباعة قد أطاف به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه صفحه الرخيص ويدفعن إليه نقدهن القليل . وسكينة تنظر وتشهى ولكنها لا تستطيع أن تأخذ شيئاً ؛ لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئاً ؛ فرق الحاج محمود لهذه الفتاة ، أو مال قلبه إلى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئاً قليلاً أدى له ثمناً ضئيلاً وملاً قلب الفتاة به فرحاً وأفعم به نفسها سروراً ، وأفاض على وجهها بهجة زادت بها حسناً إلى حسن وروعة إلى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع في قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة حب أثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة ، بدأ بالحديث الرفيق ، وثنى بالمعونة البسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا أن الحاج محموداً كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان قاسم وامراته يتلقيان هذا الود الجديد في تردد بين ما يحمل لإيهما من خير وما يثير في نفسيهما بعض الشك ؛ ولكن الحاجة كانت أقوى من الحيطة ؛ والشئ الذي ليس فيه شك هو أن الفتاة قد اطمأنت إلى هذا الرجل وثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطردها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة ؛ فأكثر التردد على دار عمها ، ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل الذي كانت تسميه عمها .

وهنا ليس يحتاج القارئ فيما أظن إلى أن أمضى به في هذا الحديث البغيض إلى غايته ، فهو يستطيع أن يبلغها وحده . وأحسبه قد أطل الانتظار لقاسم هذا الذي ذهب إلى السوق وفي يده أو في جيبه قروش العملة . فلينظر إليه إن شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كتيب ، وأقبل يسعى إلى بيته الحقيق متباطئاً ثقيل الخطو ، وفي نفسه شيء من رضا ، فسيطعم امرأته وابنته ما لم تعودا أن تصيبا منه إلا نادراً حين يكرم النهر أو حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يتقل عليهم اليأس ، ومهما يسىء إليهم الضيق ، فإن في فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يحمّلوا فيه ؛ فقد كان قاسم في تلك الساعة يشعر بشيء من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان أشدّ بؤساً وتضاؤلاً وإذعاناً لليلة من هذا الاعتداد ؛ وهو على ذلك كان يسعى متباطئاً ثقيل الخطو ، ولم يكن يسوءه أن يلحظ الجيران كلما دنا من بيته ، وأن يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وأن يقولوا في أنفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والإشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع

كثير من الحسد والغیظ . ويرى قاسم هذا كله في لحظ العيون واضطراب الوجوه ، ويكاد قاسم يجد في نفسه الرضا عن رفق الرفیق وحسد الحسود ؛ ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يصاعد إلى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفته تنفرجان ، وهم صوته الخافت أن يصبّح أهله بالخير ، وهم يدها المتهاكتان أن تضعاً بين يدي زوجته ما حملاً إليها من طعام ، وهم أن يداعبها في بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فإذا امرأة تساقط دموعها غزيراً وهي جامدة هامة ، وإذا فتاة تنتحب ، وتدافع شقيقاً لا تحب أن يسمع ؛ وإذا قاسم واجم أول الأمر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر المسألة ، وإذا امرأته ترد عليه في صوت مخنق منقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، وإذا يدها تسترخيان ، وإذا هذا الخير الذي كان يحمله خفياً به حريصاً عليه ، يسقط إلى الأرض في غير نظام ، وإذا عيناه تنطفئان ، وإذا شفته تلتقيان ثم تمتدان ، وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالي فيجلس عليه متهاكاً ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتاً خافتاً يأتي من بعيد جداً ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاماً لم نتعرض لهذا الخزي ، ثم يعيد : لهذا الخزي . ثم ينقطع الصوت حيناً ثم يعود أشد خفوتاً وأعظم بعداً وهو يقول :

ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات ! ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ، ليس هو نائماً وليس يقظان ، وإنما هوشىء بين ذلك . وقد همت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيشته ، ولكنها تنظر إليه ثم تعرض عنه ، وتظل في مكانها هاملة جامدة ، تنهل دموعها حين تجود عيناها بالدموع ، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها من البكاء . والفتاة ملقاة في مكانها لا هي بالحية ولا بالميته ، وإنما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الخمول والحمود . ولم ير الجيران في ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران في ذلك اليوم دخاناً من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران في ذلك اليوم رائحة الطعام الذى تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يده بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أوديتها السود على كل شيء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلًا مرهقاً ، فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شيء ، وانتشرت في السماء نقطة ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحاً ، فانسَل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت إليه أحد ، وغمس نفسه في ظلمة الليل وجعل يمضى فيها متباطئاً وإن أراد

الإسراع ، متثاقلاً وإن كان في نفسه خفيفاً . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، فقد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره فحمة قائمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر في الوقت نفسه بشيء من خوف لأنه قد استحال كله خوفاً .

وقد تجاوز المسجد في طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضيلاً يمتد طويلاً وينبسط عرضاً ، وأقبل ورائه من المسجد صوت المؤذن يمتد طويلاً وينبسط عرضاً ، وامتلاً الجوف من حواه ضياء يوقظ الأشياء ، وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة ؛ ولكن قاسماً لم ير ضياءً ولم يسمع غناءً ، قد أظلمت عيناه وسدت أذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليله فاترة ، وجعل يمضي أمامه ويمضي مترقياً ، حتى أحس أنه يخطو في فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئاً ، ولم يحس شيء ، وإنما مضى إلى الغيب كما تمضي في كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب .

وما من شك في أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور

وبها ، وفي أن المدينة امتلأت حياة ونشاطاً ، وفي أن الناس اضطربوا في أعمالهم بما يضطرب في قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفي أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود إليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل ؛ ولكنهما أطلتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء .

وقد يحب القارئ أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الأيام ؛ ولكن القارئ ليس في حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب ؛ فأيسر شيء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله ، فسيرى فيها « أمونات وسكينات » كثيرات لا يحصين بالمئات ولا بالآلاف ، وإنما يحصين بمئات الآلاف وقد يحصين بالملايين ، تطلع الشمس عليهن كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل إليهن رضاً ولا غبطة ولا أملاً في الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلماً قائم الظلمة يزدان بهذا القمر في أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التي تنتثر في السماء ؛ ولكنه لا يحمل إليهن راحة ولا أملاً في الراحة ، وإنما يدفعهن إلى نوم ثقيل بغيض كربه يشقن فيه بأحلام بغیضة تصور ما يشقن به في النهار من حياة بغیضة ، لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ، ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من

الناس الذين أتبعوا لم قلوب تشعروا ، وعقول تفكروا ، ونفوس
تميز بين الخير والشر ، ونعيم* كان خليفاً أن يلقنهم إلى بحيم
البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضي الليل والنهار
إلى غايتها ، لا يحفلون بأمانة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلهم
أنفسهم عن كل شيء وعن كل إنسان .

3-3

خديجة

لم تنزل من السماء كما تنزل الملائكة رحمة وروحاً على
الأرض ، ولم تخرج من النهر كما كانت العذاري الحسان
من بنات الماء يخرجن في الزمان القديم من الجداول والأنهار
ومن العيون والينابيع ، ولم يحملها إلينا السحاب ، ولا أرسلها
إلينا نجم من النجوم ؛ وإنما نشأت في القرية ، وفي أسرة بائسة
شقية من أسرها كما ينشأ غيرها من عشرات العذاري ، بل
من مثائهن وألوفهن في المدن والقرى دائماً ؛ ولكنها امتازت من
أترابها بوجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتخذد .
ولم يكن أحد يعرف من أين جاءت بهذا الوجه السمح الطلق
المشرق النقي ؛ فقد كان وجه أبيها جهماً غليظاً قد احتضرت فيه
الأخاديد احتقاراً ، وفعل به البؤس والشقاء وشظف العيش

الأفاعيل ؛ وكان وجه أمها صورة رائعة للقببح ، إن جاز أن تكون للقببح صورة رائعة ؛ وكان ضيق الحياة وخشونة العيش ، وهذه الضرورات المخرجة التي تدفع البائسين من العمل إلى ما لا يحبون ، وترضيهم آخر الأمر عما يكرهون — كان هذا كله قد غشى وجهي هذين الأبوين بغشاء صفيق مؤلم من الكآبة ، والذلة ، والحزن ، والغفلة والغباء .

ولم تكن تمتاز بإشراق الوجه ونقاؤه فحسب ، وإنما كان إشراق وجهها ونقاؤه مظهراً لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن ، قد أسبغت على جسمها كله ، فكان شيئاً رائعاً متقناً كأنما صنع في تمهل وتأنق وأناة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله فيخرج تمثاله آية في الروعة وفطنة للعيون والقلوب جميعاً .

وكان صوتها ، إذا تكلمت ، رخصاً عذباً صافياً ممتلاً لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر في النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق الفجر في ظلمة الليل كأنه السهم ، وإشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالا ونوراً .

كان صوتها يحضر في النفس هذا الوقت القصير الذي يكون بين انطلاق الفجر وإشراق الشمس ، والذي يترق في نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ملؤها الحياة والنشاط قد أرسلتها السماء إلى الأرض ، وتستيقظ فيه

الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك : تتغنى الطير وتحف الأوراق وتهف الغصون ، ويهمس الضوء الفاتر إلى الأرض أن أفيق وتأهبي ، فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .

كان صوتها يحضر في النفس هذا كله إذا تكلمت ، ولم تكن تتكلم إلا قليلا ، وكان صوتها ذاك الرخص العذب الصافي يلائم وجهها المشرق النقي ، وخلقها الرائع السوي ؛ فكان شخصا أشبه شيء بآية من آيات الموسيقى التي لا تلد السمع وحده ، وإنما تلد كل ما في الإنسان من ملكات الحسن والشعور والتفكير . وكان الناس يتساءلون ولا يكفون عن التساؤل : من أين جاء هذان الأبوان اللذان آثرتهما الطبيعة بالدمامة والقبح ، بهذه الآية التي استأثرت بأرقى الحسن وأنقاه ؟ وكان فقيه القرية إذا ألح الناس في التساؤل أمامه ، تلا عليهم هذه الآية من القرآن ، منكرأ عليهم تساؤلهم والحاحهم فيه : « تواجد الليل في النهار وتواجد النهار في الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » . ثم يقول لهم : . ويحكم ! ما تنكرون أن يهب الله الجمال للقبح وهو يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ! إنكم لا تنكرون أن ينشق الليل المظلم عن النهار المبصر ، ولا أن يهزم ضوء النهار أمام ظلمة الليل ؛ فلم تنكرون أن يهب الله خديجة هذه لأمها محبوبة ولأبيها شعبان ؟

وكانت محبوبة هذه امرأة تصفاً ، تطوف بأهل القرية تصنع لهم الخبز ، وتصنع لهم من الخبز نوعاً خاصاً هو هذا الذي يتخذ من الدرة رقيقاً مستديراً واسعاً ، لا تحسن أن تصنع غيره من خبز القمح ؛ فكنت تراها في آخر الليل ملمة بهذه الدار أو تلك تهيج العجين ؛ وكنت تراها في أول النهار جالسة أمام الفرن ، تدير بيدها السريعة الصنّاع قطع العجين ، فتسويها في سرعة مذهشة على الشكل الذي ينبغي أن يسوى عليه ، ثم تقذفها إلى النار قذفاً خفيفاً رقيقاً ، ثم تستردها من النار وقد منحتها النضج الذي يجعلها سائغة في الأفواه والحلوق والبطون ؛ وكنت تراها حين يرتفع الضحى ويوشك النهار أن ينتصف عائدة إلى بيتها ذاك الوضع الحقيق ، وقد حملت أجراها طائفة من هذا الخبز تضيفها إلى طائفة ، وتعيش عليها مع زوجها وبنيها وبناتها ، ويقنعون بهذا الخبز في كثير من الأيام ، وقد يضيفون إليه هذا الإدام أو ذاك ، إن ساق الله إلى شعبان رزقاً ، أو تفضلت بعض الأسر الموسرة على هذه الأسرة المعسرة بشيء من طعام ؛ فلأن لم يكن هذا ولا ذاك فالخبز وحده ، أو الخبز مع شيء مما تنبت الأرض وتصل إليه الأيدي القصار من البصل والقجل وهذه الأعشاب التي لا يتخرج البائسون من أن يستعينوا بها على الحياة .

وكان شعبان رجلاً مقترراً عليه في الرزق ، قد ورث عن

أبيه مهنة لا تغنى من جوع ؛ كان بناء متواضعاً ، لا يقيم الدور التى تتخذ من الحجر والآجر واللبن ، وإنما يقيم البيوت والحجرات التى تتخذ من الطين الغليظ : تراب يجمع ويصب عليه الماء ، ويخلط به بعض الهشيم ، ثم تسوى منه قطع متلائمة أو غير متلائمة يضاف بعضها إلى بعض لتمتد فى الفضاء وترتفع فى الجو ، وتدور أو تستطيل حول رقعة ضيقة من الأرض ، حتى إذا ارتفعت فبلغت القامة أو أقل من القامة ، مد عليها شئ من سعف النخل فاستقام منها بيت أو حجرة يأوى إليها البائسون من أهل القرى ، فتقيمهم أيسر ما ينبغي أن يتقوا من عادات الطبيعة . وأهل القرى لا يبنون هذه البيوت فى كل يوم ولا فى كل أسبوع ، وإنما يبنونها حين يتاح لهم البناء ، وحين تأذن لهم الظروف أن يتخذوا البيوت والحجرات ، أو أن يقيموا الغرفة فوق هذه الحجرة أو تلك ، أو فوق هذا البيت أو ذاك .

فكان يعمل اليوم أو اليومين أو الأيام القليلة ، ليظل بعد ذلك متعطلاً أياماً أو أسابيع . وكان يوسع على أهله بهذه القروش التى يغلها عليه عمله من حين إلى حين ، يكسوهم إن استطاع لهم كسوة ، ويمتعهم بقليل من الطيبات إن طالت يده إلى قليل من الطيبات ، فلم يكن بد من أن يعمل الصبية حين شبوا ليقوتوا أنفسهم حيث يعملون ، وليرجعوا على أهلهم بفضل ما يساق إليهم من الرزق .

وكانت خديجة كاعباً، تعمل في دار من دور أهل اليسار ،
تقبل مع الصبح المسفر فتنتفخ ما تملك من نشاط في خدمة أهل
الدار ، وتعود مع الليل المظلم إلى بيت أبيها فتنتفخ الليل فيه .
وكانت راضية بهذه الحياة باسمها لها على شيء من حزن كان
يستقر في قلبها ويتغلغل في ضميرها ، ولا يبين عنه لسانها حين
ينطق ولا وجهها حين يأخذ ما يأخذ من الأشكال . كانت
تفكر من غير شك في بؤس أبيها وإخوتها الصغار ، ولكنها
لم تكن تعبر عن هذه الخواطر الكثيرة بلفظ أو لحظ أو حركة ،
إنما كانت تخفي حزنها كما يخفي البخيل كنزه ؛ وربما نمت
بهذا الحزن نعمة ضئيلة مرة ؛ تغمر هذا الصوت الممتلئ العذب
فتترك في نفوس السامعين أثراً غريباً ؛ وربما نمت بهذا الحزن
معاينة خفيفة رقيقة تمر بهذا الوجه المشرق الجميل ، مرّاً سريعاً
لا يتيح للذين يرونها أن يفكروا فيها فضلاً عن أن يسألوا عنها .
كانت حياتها في تلك الدار بهجة متصلة ورضاً مقيماً ، تقطعها
بين حين وحين وفي لحظات قصار جداً هذه النسيمة التي
تهم أن تنبئ بالحزن ، ولكنها تنوب قبل أن تنبئ بما همت أن
تنبه إليه .

وكانت ربة الدار محبة لخديجة ترفيقة بها ، عطوفاً على أهلها ،
تبرهم كلما سنحت لها الفرصة ، وتحسن إليهم كلما أتيج لها
الإحسان ؛ وكانت كثيراً ما تدعو محبوبة إلى الدار وتكلفها

بعض العمل اليسير الهين أو الغليظ العنيف ، تأجرها على ذلك لا بالقروش التي تضعها في يدها ، ولكن بالثوب تهديه إليها من ثيابها هي الخليفة ، أو من ثياب أبنائها وبناتها ، أو من ثياب زوجها ، وبالطعام تكلفها حمله إلى زوجها وبنيتها ، وبالطرف تطرفها بها في أيام الأعياد وفي أيام السعة والرخاء ، حين تلم أيام السعة والرخاء ؛ ولكنها لم تكن تقف عند هذا النوع من البر ، وإنما كانت تحرص على أن يكون رفقتها بالأسرة متجدداً ، وعطفها عليها متصلاً .

وفي ذات يوم سمعت ربة الدار في فناء دارها من نحو حظيرة الماشية صياح امرأة تصيح ، وبكاء فتاة تبكي ، وصوت عصاً تلهب جسماً بضرب متصل ، وصراخ صبية يجأرون بالشكاة ، فتخرج من حجرة مسرعة ، ولا يرونها إلا محبوبة قد ألقت ابنتها على الأرض وأخذت بشعرها الطويل الجميل تجذبه بإحدى يديها جذباً عنيفاً ، ويدها الأخرى ترتفع وتنخفض بغصن يابس من هذه الغصون التي تتخذ لإدارة الحيز في الدار واستخراجها منها ، وغير بعيد من هذا المنظر الأليم طبقان من خزف قد نحيا ناحية ، ومحبوبة تنظر إليهما وتسأل عنهما الفتاة ، في حين تمنع يدها في جذب الشعر ، وتمنع الأخرى في رفع العصا وخفضها .

قالت ربة الدار منكرة : ماذا أرى وماذا أسمع ! ثم

أسرعت إلى محبوبة فردتها عن الفتاة وانترعت من يدها العصا ، وإلى الفتاة فأنهضتها وفرقت بينها وبين أمها ؛ ولكن محبوبة أمعنت في بكاء متصل فيه شهيق وزفير ، ثم لم تلبث أن أخذتها نوبة عصبية ، من هذه النوبات التي تأخذ أمثالها من النساء حين يمعن في الشهيق والزفير ، حتى اضطرت ربة الدار إلى أن تنضحها بشيء من ماء لتردها إلى الاتزان والسكون .

فلما ثابتت محبوبة إلى نفسها واستنبأتها ربة الدار عن خطبتها وخطب الفتاة ، سمعت منها كلاماً لم يكده يبلغ نفسها حتى انهلت دموعها له غزيراً : سمعت منها أنها وجدت في زاوية من زوايا بيتها هذين الطبقين ، فلم تشك في أن ابنتها تخون سادتها وتسرق ما في دارهم من متاع . لم يبق إذن إلا أن تسرق ، فتحنون من يحسنون إليها وإلى أهلها ، ويتيحون لهم حياة فيها شيء من نعمة ورضاً ! لم يبق إذن إلا أن تسرق فتدخل الشر على أهلها وتزيد عيشهم ضيقاً إلى ضيق ، وحياتهم شقاء إلى شقاء ؛ من أجل هذه السرقة التي استكشفتها فتترب عليهم في الرزق ، فردت هي عن بعض الدور التي كانت تصنع فيها الخبز ، ولم يدع زوجها إلى بناء البيوت ولا إلى تسوية الطوب منذ وقت طويل . لقد كنا نسأل عن مصير هذا الشقاء ، فقد عرفناه الآن ؛ إن لنا ابنة سارقة تخون سادتها وتختلس ما عندهم من متاع ! قالت ربة الدار وقد كفكت عبراتها : على رسلك أيها

المرأة ! فإن ابتلك لم تسرق هذين الطبقين ، وإنما كلفتها أن تحملهما إليكم أمس مع الليل ، وفيهما شيء من طعام ، كدأبي معها دائماً ؛ وما أرى إلا أنها قد نسيتهما حين أقبلت على عملها مع الصبح . قالت مخبوبة : فإنها لم تحمل إلينا أمس طعاماً كما أنها لم تحمل إلينا طعاماً قط . وانجلت القصة بعد قليل ، وتبين أن خديجة كانت تستحي أن ترفض ما تكلفها سيدتها أن تحمل من الطعام إلى أهلها ، وكانت تستحي أن تحمل إلى أهلها هذا الطعام ؛ فكانت إذا خرجت بالطبق أو الأطباق تخففت مما فيها ، تهديه إلى الفقراء إن وجدت في طريقها الفقراء ، وتلقيه إلى الكلاب إن لم تجد في طريقها إلا الكلاب ، وتلقيه في عرض الطريق إن لم تجد في طريقها ناساً ولا كلاباً ؛ ثم تضع الأطباق في زاوية من زوايا البيت ، فإذا أصبحت عادت بها إلى الدار باسم ظاهرة الرضا ، كأنها قد وسعت على أهلها بما حملت إليهم من رزق . ولكنها في ذلك اليوم قد أعجلت عن حل الطبقين ، ولا تذكرهما إلا حين رأت أمها مقبلة تحملهما وتسألها في غلظة عنهما أين كانا ومن أين سرقهما ، ثم لاتمهلهما ولا تنتظر منها جواباً ، وإنما تجذب شعرها بإحدى يديها وتلهب جسمها بذلك الغصن اليابس في يدها الأخرى ، ويأخذها الغضب فتصيح ، والفتاة يأخذها الألم فتبكي ، وكلما أمعت الفتاة في التحيب أمعت أمها في الصياح .

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم ، وفئة لا كالفتيات ؛ فأثرتها بالمودة ، واختصتها بالحب ، وكادت تتخذها لنفسها صديقاً . وقصت على زوجها القصة آخر النهار ، فرق للفتاة وأهلها وأوصى امرأته بها وبهم خيراً ، وتلا قول الله عز وجل : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وفتيان القرية يتسامعون بقصة خديجة هذه ، ويتحدثون بما تصور هذه القصة من تعفف لا يجدونه عند الأغنياء ، ومن حياء نادر لا يجدونه فيما يشهدون من أمور الناس ولا فيما يُقص عليهم من أحاديث الجذات . وفتيان القرية يتحدثون عن جمال خديجة الفاتن ، وحسنها الذي يسحر العيون ويخلب القلوب ويملك الأبواب . وفتيان القرية يسرون في أنفسهم حباً لخديجة وإعجاباً بها وطمعاً فيها ، ويعلنون بالسنتهم إطراء لخديجة وثناء عليها ، والأمانى تلعب بعقولهم كل ملعب ، وتسلك بقلوبهم كل سبيل . ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة ليست عظيمة الحظ من الثراء ولكنها بعيدة كل البعد عن الإعدام ، لها أرض تزرغ غير بعيد من القرية ، ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود إليها مع المساء ، وتغل على الأسرة خيراً كثيراً .

والفتى قوى موفور الصحة ، عظيم النشاط جميل المنظر ،
متطلق اللسان ولا سبياً حين يأخذ زينتته ويذهب إلى المسجد
ليشهد صلاة الجمعة ثم يعود فيأخذ مع رفاقه في ضروب من
العبث وفنون من الحديث .

وأسرة خديجة تسمع أول الأمر ولا تصدق ، ثم تعرف بعد
إنكار ، وتقبل بعد تردد فيه كثير من الأمل الذى يحى النفوس ،
والخوف الذى يمت القلوب . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن
تجد فى هذه الخطبة روحاً من الله ، سيتيح لها رخاء بعد شدة ،
وسعة بعد ضيق ؟ وما يمنعها أن ترى نفسها وبؤسها ، فتشفق
من إصهارها لأسرة ذات سعة ويسار ؟ ولكن الفتى صادق محب
ملح فى صدقه وحبه ؛ وأسرته لا تعدل برضاه وسعادته شيئاً
آخر ، فهى صادقة ملحة فى صدقها ، تبتغى الوسائل إلى
إقناع البؤس بأن يصهر إلى النعيم .

وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم فى
نفس خديجة ، فهى تمتنع على هذا الزواج وتلح فى الامتناع ،
تؤثر حياتها هذه التى تحياها خادماً على تلك الحياة التى تدعوها
إلى الحرية والاستقلال بأمر نفسها والقدرة على معونة أهلها .
وهى تمتنع وتمتنع وتلح فى الامتناع حتى تثير الريبة فى نفس
أبويها ؛ فما ينبغى أن تصر على هذا الإباء إلا أن تكون قد
قصرت فى ذات نفسها ، وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .

ومحبوبة تفضي بسرها هذا البشع إلى سيدة خديجة في صوت يقطعه البكاء وتغمره الدموع ؛ ولكن سيدة خديجة تردّها إلى القصد وتعيد الطمأنينة إلى نفسها البائسة وقلبيها القلق ؛ وما تزال بالفتاة تلاينها حيناً ، وتخاشنها حيناً آخر ، حتى تختلس منها الرضا اختلاصاً . وقد احتفلت أسرة الفتى ليوم الزفاف واحتفلت سيدة خديجة ليوم الزفاف أيضاً ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيا الفتيات من بنات الطبقة الوسطى لمثل هذا اليوم . وأبت سيدة خديجة إلا أن يبدأ الزفاف من دارها لا من دار شعبان .

وفي ذات ليلة كانت محبوبة قد انكفأت على وجهها أمام بيئها الخفير تريد أن تبكي فلا تجد الدموع ، وتريد أن تتكلم فلا تجد الألفاظ ، وإنما يتردد في حلقها صوت خفي منكر ، إن دل على شيء فإنما يدل على خوفها وهلعها مما ستكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على زوجته . وهي كذلك ملقاة على الأرض يضطرب جسمها من حين إلى حين اضطراباً عنيفاً ، وتجرى في أطرافها رعشة تخف لحظة وتعنف لحظة أخرى ، ويتردد في حلقها هذا الصوت المنكر البغيض ، والفرح من حولها يملأ قلوب الشباب بهجة وسروراً . ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات للبنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من

النساء والصبية قد نصبوا شيئاً يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بالفاظ ينكرها السمع ويمجها اللوق ، وسهام الزغاريد منطلقة يتبع بعضها بعضاً ، كأنما تريد أن تمزق أحشاء الليل تمزيقاً ، وامرأة وقاح تهز عجبوبة هزاً عنيفاً وتزجرها زجراً خفيفاً ، وتقول لها في صوت يسمعه الناس : أفيق ! ثوبى إلى نفسك ؛ ما تخافين ؟ لقد بيضت خديجة وجهك ووجه شعبان .

وتشرب السكينة إلى عجبوبة قليلاً قليلاً ، وقد أقامها النساء فأجلسنها وقلمن إليها شيئاً من ماء لتسترد صوابها كاملاً وقوتها موفورة .

وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ، وقبل النهار من غد ، ولكن خديجة لا تبدو للزائرات إلا مكروهة على ذلك إكراهاً ؛ تسمع منهن كل شيء ولا تقول لهن شيئاً ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد إلى إمساك الدموع سبيلاً .

وهن يسألنها ، ويتساءلن فيما بينهن : ما خطبها وما مصدر هذه الكآبة التي تغمر نفسها ، وهذه الدموع التي تغمر وجهها ؟ ومنى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن في مثل هذا اليوم الذي تفيض فيه القلوب فرحاً وبشراً ! هن يسألنها فلا يجدن عندها جواباً ؛ لأنها لا تجد عند نفسها جواباً ، أو قل إن الجواب مستقر في نفسها ولكنها لا تستطيع أن تبديه لأنها لا تستطيع أن تصل إليه ولا تظهر عليه ؛ وهن يتساءلن فيما بينهن فلا يجدن

جواباً لما يدور على ألسنتهن من سؤال . ولو جرت أنفسهن على
 بهيئتها لاخترعن الجواب عن تساؤلهن اختراعاً . وأى شيء أبسر
 عليهن من الريبة تثار بالحق وبالباطل ! لقد رأين الفتاة أمس
 تزف إلى زوجها شاحبة الوجه ممتقعة اللون زائغة البصر لا تمسك
 نفسها إلا في جهد ، كأما كانت تساق إلى الموت وهي تنظر
 إليه ، ولقد كانت أمها ملقاة على الأرض تضطرب اضطراب
 من مسها الصرع وركبها الشيطان ؛ أليس في كل هذا وفي
 بعض هذا ما يريب ؟ ولكنهن رأين الراية القانية ترتفع في ظلمة
 الليل وبين خفقان المصابيح .

والضحى يرتفع ، والهار يوشك أن ينتصف ، وهذه سيدة
 خديجة قد أقبلت زائرة لها ، تحمل إليها التحية وتحمل إليها
 الهدية أيضاً ، فترى وتسمع ويروعها ما ترى وما تسمع .
 ثم تخلو إلى الفتاة خلوة تطول شيئاً ، وتخرج من عندها
 متضاحكة تقول لمن حولها : عبث أطفال ، وجيء فتاة غافلة
 لن تلبث الأيام أن تذهب به كما تذهب بكثير من الأشياء .

ولكن الأيام تمضي ولا تذهب بشيء ، أو يخیل إلى من
 حول خديجة أن الأيام تمضي كما تعودت أن تمضي في أعقاب
 الأعراس ؛ فالفتاة هادئة مطمئنة وإن كان وجهها الصبوح
 قد فقد غير قليل من جماله وبهجته ، وغشيته محابة مقيمة من
 حزن رقيق يزيدها إلى النفوس حباً ويزيد موقعها في القلوب

حسناً ، وإن كان صوتها الرخص العذب الصافى الممتلئ ،
قد جرت فيه نغمة حزينة متكسرة ، تجعله ألد موقعا في السمع ،
وأسرع نفوذاً إلى القلب .

وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج
ويغتنبطون .

وينطلق الفجر ذات يوم جريئاً يريد أن يمحو آية الليل ،
وتغمر الأرض هذه الساعة الحلوة التي تكون بين انطلاق الفجر
ولإشراق الشمس ، والتي كان صوت خديجة يحضرها في النفوس
بما يملؤها من ترقق النسيم ، وحفيف الأوراق وهفيف الغصون
وسقوط الندى ، وغناء الطيور واستيقاظ الطبيعة ؛ وفي هذه
الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعداري من أهل القرية
ساعات إلى النهر متغنيات جمال الحياة كأنه حلم يلم بنفوسهن في
آخر عهدها بالليل ، وأول عهدها بالنهار . ثم يعدن إلى القرية
صامئات ، قد أخذن الأبتسام يغادر ثغورهن قليلا قليلا ،
وأخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئا فشيئا ، وأخذن الهن يستيقظ
في قلوبهن فنوناً وألواناً ، وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة
وآلامها ما غمرت الشمس قريتهن بنورها الملح الثقيل .

ذهبن إلى النهر فرحات ومرحات ، وعدن إلى القرية كاسفات
البال بائسات النفوس . وافتقدت خديجة حين تقدم النهار قليلا
فلم توجد ، وإنما وجدت على شاطئ النهر وفي مكان بعيد

من حيث تعود النساء أن يملأن جراً مملوءةً وإلى جانبها بعض الحلى . والتُمِسَتْ خديجة في النهر فلم يظفر بها الباحثون .
 قالت سيلبتها وهي تكفكف دموعها تريد أن تنسجم ،
 وثبتت صوتاً يريد أن ينفطر : لقد أكرهت خديجة إكراهاً
 على الزواج ، ومس حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دنس ،
 لم يستطع الحب أن يفصله ففصله الموت .
 قال سيد خديجة : وصنع الله لأبيها ؛ فقد كتب على
 محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز ،
 وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين .

٤-٤

المعتزلة

لا أريد تلك الفرقة الإسلامية المعروفة من فرق المتكلمين ،
 وإنما أريد أسرة مصرية بائسة كنت أنسيت أمرها ، حتى كان
 هذا الوباء الذي ألم بمصر ، فذكرتها ذكراً متصلاً ملحاً ، وحاولت
 أن أخلص من التفكير فيها فلم أستطع ، فأردت أن أتسلى عن
 ذكرها بالتحدث عنها لعل هذا التحدث أن يخرجها من ضميري
 الخاص إلى الضمير العام ، فيكون في ذلك تخفيف للعبء ،
 وتفرج للكرب ، وشفاء لبعض ما في النفس . والهجوم الثقال

تخف إذا شاركت في حملها ضماير كثيرة ، ولم يقصر ثقلها على ضمير واحد مهما يكن أيداً قوياً ، فكيف إذا لم يكن له حظ من قوة أو أيد !

وأردت أن أهدي حديث هذه الأسرة البائسة إلى المترفين المتعدين في الأرض ؛ لا لأبغض إليهم الترف بل لأزينة في قلوبهم ، ولا لأصرفهم عن النعيم بل لأرغبهم فيه ترغيباً وأدفعهم إليه دفعاً ؛ فقد تحدث الحكماء منذ الزمن الأول بأن الرجل الحازم خلق ألا ينظر إلى الذين يتفوقون عليه ، فتملاً قلبه الحسرة ويثقل نفسه الهم ، وأن ينظر إلى من دونه من الناس فيعرف ما أتيج له من حسن الحظ ، ويحمد رفق الله به ، ورعاية الله له ، وإسباغ نعمته عليه ، ويستمسك من أجل ذلك بما قسم له من الخير ، ويستمتع من أجل ذلك بما قدر له من النعيم . وأنا أبعد الناس عن التفكير في أن أزهّد المترفين في ترفهم وأرغب المتعدين عن نعيمهم ؛ لأنني أعلم من جهة أني لن أبلغ من ذلك شيئاً إن أردته مهما أنفق من الجهد ، ومهما أبرع في تدبيج القول وتنميق الحديث ؛ ولأنني أعلم من جهة أخرى أن ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتموم وليس من سبيل إلى تغيير القضاء ، أو تبديل القدر أو إلغاء سنة الله في الناس ؛ فالله قد خلق الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم ، يترف بعضهم حتى يطغيه الترف ، وينعم حتى

بيطره النعيم ؛ ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان ، ويشقى حتى يحبه الشقاء . . . ولأني أكره بعدهلدا وذلك أن أكون كالثعلب الذى حاول أن يصيب العنب ، فلما لم يتح له ذلك عاب العنب وزعم أنه فجع بغيفض !

وقد خطر لى أن أتخذ لهذا الحديث عنواناً آخر ، هو «أم تمام» لا أريد به زوج شاعرنا العظيم ، وإنما أريد به زعيمة هذه الأسرة المصرية البائسة ، فقد كانت تكنى بأكبر أبنائها . وخطر لى أن أهذى حديث هذه الأم وبينها الثلاثة إلى البائسين المعدلين الذين مسمهم الضر قبل الوباء ، وألح عليهم بعد الوباء حين تخطف الموت أبناءهم وآباءهم وأخواتهم وعائلتهم وتركهم نهياً للشقاء لا يدرون كيف يتقونه ، ولا كيف يحتملونه ، ولا كيف يخلصون منه ؛ لا لأبغض إليهم حياتهم البائسة وعيشهم النكد ، فما ينبغي أن تبغض إلى البائس بؤسه ولا أن تكره إليه شقاه ، وإنما ينبغي أن تحب إليه البؤس ، ليتحملة وليزيد منه إن استطاع ، وأن تزين فى قلبه الشقاء ، ليصبر عليه ويمعن فيه إن وجد إلى الإمعان فيه سبيلاً ؛ فالبؤس قضاء محتوم على البائسين ، كما أن النعيم قضاء محتوم على المنعمين ؛ والشقاء قدر مقدور على الأشقياء ، كما أن السعادة قدر مقدور على السعداء . والرجل الحازم العازم الحكيم خليف أن يرضى بالقضاء المكتوب ، والقدر المحتوم ، يحتمل الخير غير زاهد فيه ، ويحتمل الشر

غير ساخط عليه ؛ ولأمر ما وُصف الشرقيون بأنهم أصحاب
إذعان للقضاء ، واستسلام للقدر ، ورضا بالمكروه فلنصدق
على أقل تقدير قول الغرب عنا وطنه بنا ورأيه فينا ، ليصطنع
المترفون الشجاعة ليحتملوا الترف ، وليصطنع البائسون الشجاعة
ليحتملوا البؤس ، وليصبر أصحاب الثراء على محنتهم بالثراء ،
وأصحاب الحرمان على فتنهم بالحرمان ، حتى ينتهى أولئك وهؤلاء
إلى الموطن الذى لا يكون فيه ثراء ولا حرمان ، والذى لا يكون
فيه فقر ولا غنى ، والذى لا يكون فيه يسر ولا عسر ، والذى
تتحقق فيه المساواة بين الناس جميعاً حين يصيرون إلى تراب كما
خلقوا من تراب . ومهما يكن من شئ فقد ترددت بين هذين
العنوانين : المعتزلة ، وأم تمام ؛ كما ترددت فى إهداء هذا الحديث
بين المترفين والبائسين ، ثم آثرت آخر الأمر أن أخير القارئ
بين العنوانين ، وأن أهدي الحديث إلى الفريقين ؛ فى حديث
هذه الأسرة ما يرضى المنعمين والمُعذِّبين جميعاً . وأى مطمع
للكتاب أجل شأنًا وأعظم خطراً من أن يرضى قراءه على ما يكون
بينهم من اختلاف ؛ وفى حديث هذه الأسرة البائسة ما يسخط
المنعمين والمُعذِّبين جميعاً . وما قيمة الكاتب إذا لم يسخط قراءه
على ما يكون بينهم من الاختلاف ! وأنا أريد دائماً أن أكون
كاتباً ذا خطر ، فأرضى قرائى وأسخطهم ، وأسر قرائى وأسوءهم ،
وأعجب قرائى حتى بكلفوا بى أشد الكلف ، وأغبطهم حتى

بمقتضى أعظم المقتضى؛ وأنا زعيم للمتفرجين بأن يجدوا في حديث هذه الأسرة ما يجيب إليهم ترفهم ، فيعضون عليه بالنواجذ كما يقال ، ويرضون عني كل الرضا ؛ ويأن أصور لهم هذا الترف منكراً بشعاً ، ومذمماً بغيضاً ، فيسخطون على أشد السخط .

وأنا زعيم للمعذنين بأن يجدوا في حديث هذه الأسرة البائسة ما يعلمهم الصبر على المكره فيرضون عني ، وما يلقي في قلوبهم أن حياتهم لا تطاق ، وأن من حقهم أن يخرجوا منها إلى حياة ألين جانباً وأرق ملمساً ، وأن ليس لهم سبيل إلى هذا الخروج ؛ فيضيقون بي أشد الضيق ، وأبلغ بذلك كل ما أريد ، وهو أن أرضى القراء وأغيطهم مهما يكن بينهم من التفاوت والاختلاف ؛ فأنا لا أريد إلا هذا ، ولا أفكر إلا فيه ؛ وما الذى يعينى من أن يترف المترفون حتى يقتلهم الترف ، ومن أن يشقى الأشقياء حتى يهلكهم الشقاء ! لا يعينى من ذلك شيء ؛ لأننى رجل من أهل العصر الذى أعيش فيه ، وأخص ما يمتاز به هذا العصر الذى أعيش فيه الأثرة وحب النفس ؛ فأنا رجل أثر لا أحب إلا نفسى ، ولا أفكر إلا فيها ، ولا أعنى إلا بها ؛ وأنا رجل كاتب لا يعينى إلا أن أملك على القراء أمرهم بما أثير في قلوبهم من رضاً وبخط ، وبما أشيع في ضمائرهم من حب وبغض ولست أزدري شيئاً كما أزدري إلقاء الدروس في الأخلاق ، ولست أنفر من شيء كما أنفر من ترغيب الأغنياء في العطف على

الفقراء ، ومن تشجيع الأشقياء على احتمال الشقاء . ما أنا وهذا كله ؟ إن الناس من حولي لا يذوقون للتضامن طعماً ، ولا يعرفون للتعاطف قدراً ، لا يحفل بعضهم ببعض ، ولا يفكر بعضهم في بعض ، ولا يأسى بعضهم لآلام بعض ، فما لي أحمل نفسي من الأعباء ما لا يريد الناس من حولي أن يحتملوا ؟ وما لي أدفع نفسي إلى هذا الشدوذ الذي لا خير فيه ولا خير لأحد فيه ؟ وما لي لا أسير سيرة الجيل ولا أعيش عيشة المعاصرين ولا أنفع بقول أبي العلا :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى قيل إنى جاهل
الأثرة ، يا سيدي ، هي الأساس المتين الذي يقوم عليه نظامنا الاجتماعي البديع ، الذي نفتديه بأنفسنا ونحميه بما نملك وما لا نملك من جهد ؛ فمن أراد الدفاع عن هذا النظام وحياطته وصيانه من أن يعيث به العابثون أو أن تمسه الخطوب بما لا يحب وبما لا نحب ، فليكن أثراً إلى أبعد غايات الأثرة ، محباً لنفسه إلى أقصى آماذ حب النفس ، لا يحفل بالناس إلا بمقدار ما يهيئون له من الخير ، وما يحققونه له من المنفعة ، وما يبلّغونه من الآراب ؛ فإذا بعد الأمل بينه وبينهم ، أو خفيت عليه أسرار الصلات التي تجعله محتاجاً إليهم وتجعلهم محتاجين إليه ، فلا عليه من أن ينكرهم إنكاراً ويزدرهم ازدراء ، ويمضى في طريقه مستمتعاً بطيبات الحياة ، غير ملق بالآ إلى ما

يكتشفهم من الهول ، وما يصب عليهم من الهم ، وما يسلط عليهم من الكوارث والنكبات .

كذلك نعيش وكذلك يجب أن نعيش . وأيسر انحراف عن هذا اللون من ألوان العيش ، وعن هذا النظام من نظم الحياة ، خلقي أن يجشمنا أهوالاً ، ويحملنا هموماً ثقالاً . وكيف تستقيم حياتنا إذا غنى أصحاب الترف المترف والثراء العريض بأصحاب البؤس البائس والعذاب الأليم ، فدادوا عنهم بعض ما يثقلهم من البؤس ، ورفعوا عنهم بعض ما يضرهم من العذاب ، وشغلهم ذلك عن الاستمتاع بلذاتهم والانتفاع بهذه الثمرات الحلوة المرة السائغة الفجة التي تأتيهم من بؤس البائسين وعذاب المعذنين ، وشغلهم ذلك عن أن يجمعوا إلى سنف الحديث حين يرتفع الضحى ، وإلى سنف المتاع حين يقبل المساء ، وإلى اللهو واللعب حين يتقدم الليل ، وإلى النوم الثقيل حين يهيم الصباح بالإشراق ؟ إذن تفقد الحياة بهجتها ، وتفقد الدنيا زينتها ، ويصبح العيش المصرى كله نكدًا كدراً منغصاً ، لا صفو فيه ولا عنمو ولا جمال . حسب الأشقياء أن تعطف عليهم ألسنتنا وتأنى عنهم قلوبنا ، وأن نرثى لهم بالقول ونقسو عليهم بالفعل ، ونخلى بينهم وبين أحداث الزمان ونوائب الأيام ، تجرعهم الآلام غصصاً ، وتعلمهم كيف يكون استعذاب العذاب المر ، وإساعة الشر الذى لا يساغ . وأقول هذا كله جاداً لا عابثاً .

فإن الله قادر على أن يممس الأرض بجناح من رحمته ، فيتيح لأهلها جميعاً ما يتمنون من الترف والثراء والنعيم ؛ والله قادر على أن يممس الأرض بجناح من نقمته فيفرض على أهلها ما يكرهون من البؤس والشقاء والعذاب ؛ وما دام الله لم يجعل الناس جميعاً سعداء ، ولم يجعلهم جميعاً أشقياء ، وإنما قسم حظوظهم بينهم على هذا النحو الذى نراه ، فليس لنا وليس علينا إلا أن نريح أنفسنا ، وأن يريح بعضنا بعضاً من اللوم والنكير والتشريب ، وأن يرضى كل منا بما قسم له من الحظ ، وأن يحقق السعيد إرادة الله فى الأرض فينعم بالسعادة كأقصى ما يستطيع ، وأن يحقق الشقي إرادة الله فيغرق فى الشقاء إلى كتفيه أو إلى أذنيه ، أو إلى شعر رأسه إن شاء !

وقد يظن القارئ أنى قد أسرفت فى البعد عن هذه الأسرة المعتزلة ، وعن حديث أم تمام ؛ ولكنه يخطئ أشد الخطأ إن ظن فى هذا الإسراف ؛ وهبه يصيب كل الصواب حين يظن فى هذا الإسراف ، فليس يعننى من خطئه أو صوابه شيء ، وإنما الذى يعننى هو أنى أنا لا أعتقد أنى أطلت المقدمات أو انحرفت عن موضوع الحديث ، فقد قلت إن هذا الوباء الذى ألم بمصر أذكرنى من أمر هذه الأسرة المعتزلة ما كنت ناسياً ، ثم ألح على ذكرها إلحاحاً شديداً . وأكبر الظن أنى لم أذكر هذه الأسرة البائسة ذكراً متصلاً ملحاً ، ليقف منها عقلى

وقلبي موقف الناظر لها المحدث فيها ، دون أن يثير ذلك في العقل بعض الخواطر ، ودون أن يثير ذلك في القلب بعض العواطف ، ودون أن يشيع ذلك في الضمير بعض الحزن . والكتاب البارعون في الفن يؤخرون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم إلى آخر الحديث ، يجعلون من هذا كله عبرة لمن يريد أن يعتبر ، وموعظة لمن يريد أن يتعظ ؛ فيجعلون من أنفسهم أساتذة في الأخلاق ، ومصلحين لنظم الاجتماع ، ويرضون عن أنفسهم بعد ذلك كل الرضا ، ويجهلون أن القارئ أشد منهم مكرراً وأبلغ منهم دهاء ؛ وأنه يقرأ أول الحديث لما قد يجد فيه من تسلية ، أو لما قد يلتبس فيه من تسلية ، ويترك آخر الحديث لأنه يضيق بدروس الوعظ والإرشاد والإصلاح أشد الضيق .

ومن الكتاب البارعين من يشيعون خواطر عقولهم وعواطف قلوبهم وأحزان ضمائرهم في حديثهم كله منذ يبدأونه إلى حيث يفرغون منه ، يتخذون من قصصهم أغشية لهذه المواعظ والعبر ، فيخدعون بذلك بعض القراء عن أنفسهم ولكنهم لا يخدعون القراء جميعاً ، فلا يكاد الأذكياء منهم يقرأون حتى يستكشفوا مكر الكاتب ويعرفوا حيلته ، فيقرأون على كره أو يزورون عن القراء ازواراً ؛ فأما أنا فقد قلت وما زلت أقول : إني لا أريد أن أعلم جاهلاً ، ولا أريد أن أعظ غافلاً ولا أن أنبه ذاهلاً ؛

فلست من هذا كله في شيء ، لأننى واثق بأن القراء جميعاً علماء لا يمكن أن يرقى إليهم الجهل ، أذكىء لا يمكن أن تسعى إليهم الغفلة ، متنبهون لا يمكن أن يعرض لهم الدهول ؛ وقلت وما زلت أقول : إنى لا أريد أن أخدع أحداً عن نفسه ، لأننى لا أسىء الظن بالقراء ، ولا أنظر إليهم على أنهم أطفال يجب أن يلهوا عن الدواء بهذه الأغشية التى تجنبهم مرارته وكراهته ؛ فكيف وأنا لا أقدم إليهم دواء ، لأننى لست طبيباً ، ولأنهم ليسوا مرضى ، ولأننى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن إليها كل الاطمئنان ، معجب بها أعظم الإعجاب ، لا أريد أن أغير منها قليلاً ولا كثيراً ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير ؛ وأول هذا الحديث يدل فيما أظن دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيّقون بأحد كما يضيّقون بأصحاب الشمال .

ومن أجل هذا كله اخترت أن أتحدث إلى القراء فى هذا المقال عن أم تمام وأسرتها المعتزلة ، لأن أم تمام كانت تصور المحافظة الميامنة أبرع تصوير وأصدق وأقواه ؛ فهى كانت من أهل الصعيد الأعلى ، وأهل الصعيد محافظون كما يعلم القراء ، لم يفسدهم العلم ، ولم تنحرف بهم المعرفة عن الطريق القصد ، ولم تعلمهم الحضارة وما كثر فيها من البدع أن فى الأرض جوراً يجب أن يرتفع عنها ، وأن فى السماء عدلاً يجب أن يهبط إلى

الأرض ليملاها أمناً ودعة ورضاً ؛ وإنما هم قوم يعيشون على فطرتهم ، ويرسلون نفوسهم على سجاياها . رأوا الأرض ملعباً لقليل من ملائكة العدل وكثير من شياطين الجور ، فأحبوا أولئك وألقوا هؤلاء ، ولم يطلبوا من أولئك ولا هؤلاء إلا أن يمضوا فيما استأنفوا من لعب ، فإن مسهم من هذا اللعب خير نعموا به ، وإن مسهم منه شر شقوا به ، غير منكرين ولا معترضين ولا محاولين تغييراً ولا تبديلاً ، ويقال إن الكاتب يختار أشخاصه على صورته ، وقد يقطعهم من نفسه اقتطاعاً ؛ ولولا أن أم تمام كانت غارقة في البؤس والشقاء ، ومسرقة في الدمامة والقبح ، لقلت إنى اقتطعتها من نفسي اقتطاعاً ؛ ولكنى لست غارقة في البؤس والشقاء ، والحمد لله على كل حال ؛ وسيرى القارئ أن صورة أم تمام ليست منى في شيء ، فبدله ذلك من غير شك على أنى لم اخترعها ولم أبتدعها ، وعلى أن خيالى الضعيف الكليل ليس له في حياتها ولا في حياة أسرته أثر ما ، وإنما هى حقيقة واقعة خلقها الله الذى يخلق الحقائق كلها ، والذى يقسم بين الناس حظوظهم من الجمال والقبح ، كما يقسم بينهم حظوظهم من السعادة والشقاء .

وقد كانت أم تمام هذه غريبة الأطوار من كل جوانبها ، حتى أنى لا أستطيع أن أختار الطور الذى أبدأ به من أطوارها . وربما كان الخير أن أعرض عليك صورة ضئيلة حقيرة للبيت

الضئيل الحقيير الذى كانت تعيش مع أبنائها فيه .

فقد كان هذا البيت أشبه شئءً بالبقعة القذرة التى تفسد جمال الثوب الجميل النقى ، كان ضيقاً فى الفضاء أشد الضيق ، منخفضاً إلى الأرض أشد الانخفاض ، قد أقيم من هذا الطين الساذج الذى يخلطه الفلاحون بشئءٍ من التبن والقش ويسوونه تسوية مقاربة ويسمونه فى مصر الوسطى « بالطوف » ثم يجمعون بعض هذه الأطواف إلى بعض حول قطعة من الأرض ، يرفعونها فى الجو شيئاً ، ويمدونها فى الفضاء شيئاً ، ويلقون عليها طائفة من سعف النخيل أو من قصب الذرة ، ويتخذون لها باباً من خشب رقيق ، فتصبح بيتاً يأوون إليه ويتقون فيه برد الشتاء وحر الصيف ومطر السماء ، إن كان من الممكن لمثل هذا البناء المهلهل أن يقي الذين يأوون إليه برداً أو حرّاً أو مطراً . وكان بيت أم تمام هذا الصغير الحقيير يقوم بين دارين ضخمتين فخمتين ، أو قل بين فناءين واسعين لهاتين الدارين ، وفى كل فناء من هذين الفناءين قامت أشجار وشجيرات ، بحيث هم كل فناء منهما أن يكون حديقة تقوم أمام الدار ولكنه لم يبلغ أن يكون حديقة ، فكان شيئاً بين الفناء المهمل والحديقة التى يمنحها الناس شيئاً من عناية ، ويجلسون فيها شيئاً من راحة وروح . ولم أدر كيف قام هذا البيت الحقيير الصغير بين هاتين الدارين العظيمتين ، وقد سألت الناس من حولى عن هذا ، كما سألتهم

عن مقدم أم تمام وبنيتها إلى القرية وإقامتها في هذا البيت، فلم أجد عند أحد منهم جواباً ؛ لأنهم كانوا جميعاً طارئين على القرية، دعيتهم إليها الدائرة السنية ؛ ولأن القرية نفسها كانت طارئة على المكان ، أنشأتها فيه الدائرة السنية ؛ فلم يكونوا يعرفون من أمر جيرانهم ولا من أمر قريتهم إلا قليلاً أو أقل من القليل . وكانت سيرة أم تمام وبنيتها تمنع جيرانها من أن يعرفوا شيئاً من أمرها ، فقد كانوا يعتزلون الناس اعتزالاً غير مألوف . ولكن أو أن الحديث عن هذا الاعتزال لم يثن بعد ؛ فقد ينبغي أن تعرف قبل ذلك أم تمام هذه ، أو أن ترى صورتها على أقل تقدير ، فصورتها خليقة أن ترسم : كانت أم تمام قصيرة مسرقة في القصر ، منحنية مسرقة في الانحناء، همت قامتها أن ترتفع في الجو فلم تستطع أن تستقيم ، وإنما انعطفت أعلاها على أسفلها كأنها خلقت لثلتصق بالأرض التصاقاً . وكانت من أجل ذلك أشبه بذوات الأربع منها بالإنسان ذى القامة المعتدلة والقد المستقيم ؛ وكانت من أجل هذا إذا مشت خيلت إليك أنها تتدحرج كما تتدحرج الكرة، وكان مشيها بطيئاً رقيقاً ، فكان يشبه حركة الكرة عند ما تخف عنها قوة الدفع فتضطرب مبطئة تسعى إلى السكون ؛ وكان صوت أم تمام نحيلاً ضئيلاً ، وكانت قد فقدت بعض أسنانها ، فكان صوتها النحيل الضئيل يستحيل إذا تكلمت إلى هواء خافت لا يكاد السامع يتميز حروفه إلا

فى مشقة وجهه . وكان يعيش معها فى بيتها ذاك الصغير الحقيق
 غلامان ، كاد أحدهما أن يبلغ العشرين ، وهو تمام ؛ وجاوز
 الآخر الخامسة عشرة قليلا ، وهو أبو العلاء . وكان تمام وأخوه
 يعملان فى البناء ؛ يحاول تمام أن يكون بناء ، ويحمل أخوه
 الطين والماء وغيرهما من الأحوات التى تتصل بعمل البنائين ،
 ويصيب الغلامان من هذا العمل الذى يتصل أحيانا وينقطع
 أحيانا أخرى ما يتيح لأسرتهم قوتا يقيم الأود ولا يكاد .

وكانت لأم تمام بنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من
 عمرها ، وهى سعدى التى كان الجمال والدمامة يختصمان على
 وجهها وجسمها كله اختصاصا شديدا ؛ يريد الجمال أن يستخلصها
 لنفسه مستعينا بقوة الصبا والشباب ، ويريد القبح أن يؤثر بها
 نفسه مستعينا بالبوؤس وما يستتبعه من الحرمان ؛ وكانت الصبية
 بين هذين الخصمين أشبه شىء بالكرة يتقاذفها اللاعبان .
 ولم يعرف أحد لهذه الأسرة زعيما ، بل لم يعرف أحد كيف
 هبطت الأسرة من أعلى الصعيد إلى هذه القرية من قرى مصر
 الوسطى ؛ وإنما كان الناس يتحدثون بأن أم تمام قد نهضت
 وحيدة أو كالوحيدة تشىء بنيتها الثلاثة وقد لقيت فى ذلك
 جهدا جهيذا وعناء شديدا ؛ لم تهبط بهم من صعيدها الأعلى
 إلى قرينتا تلك إلا متنقلة بين المدن والقرى ، تقيم فى هذه المدينة
 سنة أو أقل أو أكثر ، وتقيم فى هذه القرية أشهراً ، وفى هذه

القرية أسابع ، وفي هذه القرية أياماً قليلة أو كثيرة ، حتى انتهت إلى قريتنا تلك ؛ فأقامت فيها وأطالت المقام .

ولم يكن اسم أم تمام أقل غرابة من كنيها ، بل لم يكن أقل من جسمها ؛ فأنت إن أردت أن تنطق به كما كان الناس ينطقون به في القرية قلت : ست أبوها ، وإن أردت أن تنطق به على أصول اللغة الفصحى قلت : سيدة أبيها ، أو ست أبيها ، كما كان الناس ينطقون في بعض عصورنا القديمة . وكان هذا الاسم يقع من آذاننا موقعاً غريباً ، وكنا ننطق به على أنه لسي كلمة واحدة لا كلمتان ؛ وكنا نسأل أنفسنا عن معنى هذا اللفظ الغريب .

ولم تحاول أم تمام قط ولم يحاول أحد من بنينا قط الاتصال بالناس إلا حين كانت الضرورة الملجئة تضطربهم إلى ذلك اضطراراً ؛ فقد كانوا يحتاجون إلى أن يشتروا الطعام ليقيموا أودهم ، وكانت أم تمام تحتاج أحياناً إلى أن تبيع ؛ فقد كان يعرض لها في بعض الوقت أن تخرج إلى الطريق الزراعية العامة ، وأن تتلفظ من هذه الطريق روث البقر وإلحاموس ، تقطعه قطعاً متقاربة ، وتجففه على سقف بيتها ، وتتخذ منه وقوداً لتطبخ إن أتيح لها أن تطبخ ، وتبيع فضله بين حين وحين لبعض نساء القرية بالقروش أو بعض القرش ، توسع بذلك على نفسها وعلى بنينا ، ولم يخطر فيما أعلم لأحد من المومنين ولأهل الدارين

الذين كانوا يرون بيتها أن يروا هذه الأسرة بقليل أو كثير من الخير ، لا لأن الموسرين كانوا يدخلون بالمعونة على الذين يحتاجون إلى المعونة ، بل لأنهم في أكثر الظن قد هموا أن يروا هؤلاء الناس فردوا برهم عليهم في شيء من التعفف الذي لا يحب من الفقراء ، فكف الموسرون عن محاولة الرفق بهم والتوسيع عليهم في الرزق .

وأما أم تمام في القرى يوسعن على أنفسهن وعلى أبنائهن وأزواجهن أحياناً بالعمل في دور الموسرين والأغنياء ، يكسبن من هذا العمل قوت أنفسهن وفضلاً من خير يحملنه إلى البيوت ، فيأكل الجائع ويكتسى العريان ويذوق المحروم شيئاً من طيبات الحياة ؛ ولكن أم تمام لم تحاول شيئاً من ذلك ولم تفكر فيه ، وكأنها قد خرجت على ابنها أن يحاول بعض ما يحاول الشباب الفقراء من الاتصال بشباب الأغنياء وأصحاب السعة ؛ فلم يكن الغلامان يشاركان في لعب ولا في جد . وربما رأهما الرءون وقد جلس كل منهما إلى أخيه يخططان في الأرض أو يلعبان لعبة « الطاب » ؛ وكذلك نظر أهل القرية إلى هذه الأسرة على أنها أسرة غريبة ثقيلة سمجة ، ليست منهم وليسوا منها في كل شيء .

وكان أهل القرية مع ذلك يتحدثون فيما بينهم عن هؤلاء الناس في إشفاق كثير لا يخلو من سخرية ، وربما يقسو — إن أمكن أن يكون الإشفاق قاسياً — فيشتمل على شيء من شناعة . كانوا

يرون هذين الغلامين يحتملان أشد العناء وأشق المشقة ليكسبا القروش القليلة في بعض الأيام ، ويتساءلون كيف تعيش هذه الأسرة من هذا الكسب القليل ؛ وكانوا يرون هذين الغلامين وقد بليت ثيابهما فكشفت عن مواضع من الجسم من حقها أن تستر ، ورقعت حتى ملت الترقيع ؛ وكانوا يرون الصبية سعدى في أسماها البالية ، فيرحمون هذا الصبا النضر في هذا الغشاء المبتذل . ويقول بعضهم لبعض : لولا الكبرياء لأصاب هؤلاء الناس عيشاً أرق رقة وألين ليناً .

أما أم تمام فلم يرها أحد قط إلا ملتفة في شقتها السوداء تتدحرج على الأرض حين تشرق الشمس ساعية إلى الطريق العامة ، وتتدحرج على الأرض حين يرتفع الضحى أو ينتصف النهار ، حاملة ما جمعت من روث ؛ وربما رآها الرءون متبذلة على سقف بيتها تقطع الروث وتسويه ، فرأوا منظر أبشعاً وشكلاً مخيفاً .

ويقبل الوباء ولما يبلغ هذا القرن من عمره سنتين . ويلم الوباء بالقرية فيما يلم به من المدن والقرى ، ويفجع الناس في أنفسهم وأبنائهم وذوى قرابتهم ومحبتهم ؛ وتكون أم تمام في طليعة الذين يفجعهم الوباء ، فهو يختطف ابنها في أقل من خمسة أيام ، وهي مع ذلك هادئة ساكنة مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، لا يرتفع لها صوت بالإعوال ، ولا ينخفض لها صوت بالنجيب ؛ وإنما هي مقيمة في بيتها ، وقد آوت إليها ابنتها كأنما

تنتظران أن يلم الوباء بهما ويختطفهما كما اختطف الغلامين .
ولكن الوباء قد أَرْضَى حاجته من هذا البيت فهو لا يعود إليه ،
فإذا طال انتظار أم تمام له في غير طائل ، نظر الناس فإذا
أطوارها قد تغيرت من جميع جوانبها ، وإذا حياتها قد بدلت
تبديلاً ، فهي لا تألف بيتها ولا تحب الاستقرار فيه ، وإنما
تمسك فيه الصبية وتخرج عليها أن تخرج منه ، وتنطلق هي
مع الشمس المشرقة لتعود إلى بيتها وابنتها حين ينشر الليل ظلمته
على الأرض ، ويسعى الموت والمرض مستخفين إلى البيوت .

كانت أم تمام تخرج من بيتها حين تشرق الشمس ملففة
في شقتها السوداء مطرقة بجسمها كله إلى الأرض ، فتقف أمام
بيتها وقفة قصيرة تستقبل الغرب ، وترفع رأسها في تكلف شديد
إلى السماء ، وتمد بصرها أمامها ، ثم تلتفت إلى يمين وإلى شمال
تجذب الهواء بأنفها جذباً ، كأنما تحاول أن تنسم رائحة خفية
ضئيلة ، وقد كانت بالفعل تنسم رائحة الموت تندفع إلى يمين
أو إلى شمال ، ثم لا يراها الناس أثناء النهار كله إلا في دار من
هذه الدور التي ألم بها الموت وقام فيها المأتم يندبن ويبكين ؛
وكانت أم تمام تصل إلى هذه الدار أو تلك فلا تقول لأحد
شيئاً ولا تلتق إلى أحد سماعاً ، وإنما تقصد المأتم الباقيات ،
وتجلس حيث ينتهي بها المجلس ، لا ترفع صوتاً بإعوال ولا
تخفض صوتاً بنحيب ، لا تلطم وجهها ولا تخمش صدرها

ولا تصنع صنيع أحد من هؤلاء النساء ، وإنما تجلس ساكنة منعطفة على نفسها ، كأنها قطعة من صخر قد سويت على عجل ونحتت في غير نظام ، وفاض من عينيها دمع غزير غير منقطع ، كأنه بعض تلك الينايع الضئيلة التي يتفجر عنها الصخر في الجبال ؛ حتى إذا بلغت حاجتها من البكاء في هذه الدار تركتها إلى دار أخرى ، ثم إلى دار ثالثة ، وما تزال كذلك حتى ينقضى النهار ، لا تكلم أحداً ولا يكاد يكلمها أحد ، ولا ترد على الذين كانوا يكلمونها رجع الحديث . أكانت تبكي ابنها ؟ أم كانت تبكي أبناء تلك الأسرة التي كانت تلم بها ؟ أم كانت تبكي صرعى الوباء جميعاً ؟ أم كانت تبكي نفسها وابنتها بين الذين لم يصرعهم الوباء ؟ وكيف كانت تعيش ، وكيف كانت تتيح لابنتها الصبية أن تعيش ؟ لم يستطع أحد قط أن يعرف من ذلك قليلاً ولا كثيراً ، لم يحاول أحد أن يعينها ، ولم تحاول هي أن تستعين بأحد ، وإنما أنفقت أيام الوباء تنسم ريح الموت حين يسفر الصبح ، وتسفح دموعها في منازل الموت أثناء النهار ، وتعود إلى بيتها وابنتها حين يقبل الليل . وتنجلي غمرة الوباء . وتخرج أم تمام من بيتها مع الصبح أياماً وأياماً ، فتستقبل بوجهها الغرب تنسم ريح الموت فلا يحملها إليها النسيم ، فترجع أدراجها وتدخل بيتها وتغلق من دونها الباب ، ولا يراها النهار إلا حين تخرج مع الصبح لتتنسم ريح الموت .

ويرواها بعض أهل القرية ذات يوم قد خرجت قبيل أن يرتفع
الضحى ، وأخذت بين يديها ، وجعلتا تسعين في يدها تحو
الغرب ، فيقول بعضهم لبعض : هذه أم تمام قد ملت البطالة ،
وسممت للسكون وشق عليها وعلى ابنها الخروج ، فخرجتا تلتمسان
الرزق ويتبعان من فضل الله . ولكن النهار لا يكاد يتصف حتى
يأتى نفر من الفلاحين يحملون حثة قد شاع فيها الموت ، ورجعة
أخرى تمتنع على الموت امتناعاً ، قد رأوا أم تمام تغرق نفسها
ولبتها في القناة الإبراهيمية ، فأسرعوا إلى استنقاذها ، ولكن
الموت سبقهم إلى الشيخة وسبقوه هم إلى الصبية ، وقد دفن أهل
الخير أم تمام ، وألوا سعدى ، في هذه الدار أياماً وفي تلك
الدار أياماً ، ولكن سعدى خرجت من الماء بلهاء ليس لها حظ
من عقل ولا نصيب من صواب ، فهي ثقيلة على الدين يؤوبها ،
بغضة إلى الدين يضيئونها ، وما هي إلا أساييع حتى تلفظها
الدور والبيوت ، وإذا هي مشردة تسعى ما استطاعت السعى ،
وتسكن حين تضطر إلى السكون ، تراها في هذا الشارع من
شوارع القرية مصيحة ، وفي هذا الزقاق من أزقتها ممسكة ، وتراها
بين ذلك في الطريق العامة تسعى سعياً رقيقاً كأنها السلحفاة ،
أو تعدو عليها سريعاً كأنها الأرنب . وقد تراها أحياناً جالسة
على شاطئ القناة تنظر إلى الماء كأنها تريد أن تغوص فيه ،
أو تنظر إلى السماء كأنها تريد أن ترقى إليها . وعرف الناس سعدى

البلهاء ، ونسى الناس أم تمام ، وجعل الناس ينظرون إلى سعدى
البلهاء كما ينظر أهل الريف إلى أمثالها : يعطفون عليها حيناً
ويضحكون منها أحياناً ، يرثون لها مرة ويقسون عليها مرات .

وسعدى البلهاء على ذلك تعيش وتشب ويستدير جسمها
ويستقيم قدها ، ويسخر البؤس منها فيلقى على وجهها مسحة
من جمال ، وهى على ذلك حمقاء خرقاء لا تحسن أن تعمل ، ولا
تحسن أن تقول ، ولا تستقر فى مكان ، وإنما هى متنقلة بين
القرى ، تُرى فى هذه القرية يوماً وفى تلك القرية يوماً آخر ، وقد
تُرى فى هذه القرية مصبحة وفى القرية المجاورة من قرب أو من
بعد ممسية ؛ ولكن أهل القرية يرونها ذات يوم فيرون منظراً
عجباً من شأنه أن يمزق القلوب حزناً ويفرق النفوس حسرة وأذى ،
يرون هذا المنظر المؤذى البشع البغيض ، فلا يثير فى نفوسهم
رحمة ولا يجرى ألسنتهم بكلمة رثاء ، وإنما ينظرون ثم يتضحكون
ثم يتبادلون هذه الألفاظ الغليظة التى تصور سخرية أهل الريف ؛
لأنهم يرون سعدى البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها ، قد
عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع فى أحشائها جنيناً ، وهى
بلهاء لا تفرق بين الغول والرجل ولا بين الملك والشيطان ، ولا
تعرف ما يراد بها ولا تعرف ما تريد إن كان مثلها أن تريد .

أين مضت سعدى بهذا الجنين الذى كانت تحمله فى
أحشائها ؟ أأتبح لهذا الجنين أن يرى النور أم لم ينح له أن يراه ؟

ما خطبه ~~ولا~~ خطب أمه ؟ لن أحدثك من أمرها بشيء لأنى لم أعرف من أمرها شيئاً ، وإنما حدثتك بما وقف عنده علمى ، فقد ارتحلتُ عن القرية قبل أن تبلغنى أنباء الجنين وأمه البلهاء ، ثم شغلتُ عن الجنين وعن أمه البلهاء ، وأنسيت أم محام وابنيها ، وتقلبَت فيما شاء الله أن أتقلب فيه من شئون الحياة خسة وأربعين عاماً . ثم أعود إلى مصر بعد غيبة عنها قصيرة أو طويلة ، فأجد فيها الوباء ، وما هى إلا أن أذكر أم محام وابنتها سعدى البلهاء ، وما هى إلا أن أسأل نفسى أيمكن أن يجد الوباء الحديث ما وجد الوباء القديم من حال أم محام وأشباه أم محام ؟

يقال إن شئون مصر قد تغيرت ، وإن حياة مصر قد صلحت فيما يقرب من نصف قرن ؛ ولكن شئون مصر التى تغيرت ، وحياة مصر التى صلحت ، لم تمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر ؛ فن يدرى ! لعل تغير الشئون وصلاح الأحوال ورفق النظام الاجتماعى والسياسى ، لا يمنع من أن توجد فى قرية من قرى مصر العليا أو من قرى مصر السفلى ، أو قريباً جداً من القاهرة ، أسرة معتزلة كآسرة محام .

5-5

نوفيق

1-1

كان ذلك في ساعة من ساعات الضحى ، حين كان
 النهار يجب أن ينطفيئ في سعيه ، ليخمس الصبية والشباب من
 أهل الكفاف ، ويمسكهم في حياتهم تلك التي كانت تخصهم
 لعنت سمينا وذكرا العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة
 التي يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيروا غذاءهم ، والتي كانوا
 ينظرونها مشغوقين إليها ، فلا يرضوا حاجاتهم إلى الطعام ، بل
 يرضوا حاجاتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من
 أهل الكفاف يستبطلون ارتفاع الضحى ويزوال الشمس ،
 ويخمدون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط
 غريب مفاجيء ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة
 الأيدي التي تمسح الألواح لتريل منها ما حفظ أمس ، وتكتب
 فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكفاف في ذلك الوقت أشبه
 نقيء بحلية النحل ، كله حركة ، كله نشاط ، وكله دوى
 يرتفع حتى يُسمع من بعيد جلاءه ، على ما فيه من تباين الأصوات
 واختلافها بين أصوات الصبية النخيلة الصبيلة العالية التي
 لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التي أخذت تمتلئ لأن أصحابها

قد تقلعت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التي كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفي جظها من الاملاء ؛ وكانت هذه الأصوات المخططة المنطلقة في وقت واحد ، تحمل إلى الأذان شيئاً حلواً رائقاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها في طبيعة الجرس ، وينشأ عن اختلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، ويملا النفس روعة وطرباً .

في هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفي ساعة أخرى من ساعات النهار حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها ؛ ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت دون أن يصفق تصفيقاً قوياً ، ويخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الأذان ويفجأ النفوس ، فيعقد الألسنة عن النطق ، ويكف الأيدي عن الحركة ، ويعقل التلاميذ في صمت أبله ، وسكون أحق ، ووجوم غريب .

في ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتاب بين شقّي الباب رجل تجاوز الشباب ولكنه لم يعم في الشيخوخة ، وعليه مظهر الثروة وارتفاع المترلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذي تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة ، مهيب الطلعة ، ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه

راض عن نفسه كل الرضا ، مستقر في الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ولا يشك في شيء ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب ؛ وأكبر الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده العسكرية كلها أو أكثرها ؛ وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ؛ وإنما كان تركياً تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل في وجهه وفي شكله كله شيئاً لا أدرى ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مبادلة ما ، ويثير في نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً غريباً فيه لكبار له وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعياً رقيقاً ، فأما أحدهما عن يمينه فقد كانت على وجهه سماعة رقيقة من حزن ، وأما ثانيهما عن شماله فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً ؛ فلما بلغ باب الكتاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط في قريتهم ، صوتاً ضخماً عريضاً ممثلاً ، أغنى سبدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعقلهم في هذا السكوت الأبله ، وفي هذا

السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ، فإذا هو قائم على دكتته قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعود أن يفعل في مهل وأناة ، وقد رد التحية على صاحبها في شيء من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه في صدر المكان ؛ وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاء به ودعاه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل وأبى أن يجلس ، وقال في صوته ذاك المهيب الخفيف : « إني حديث عهد بهذه المدينة ، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتابات ، فأحببت أن أقود إليه ابني هذين ، وأن أكل إليك تعليمهما ؛ فأما أحدهما فهو هذا — وقدم الصبي الذي كان قد أعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا ، فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فإني قد وهبته للأزهر ؛ وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه في الكتاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم ، وأحفظه شيئا من القرآن ، ونخذه بشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً في الكتاب كما هو عفريت في البيت . » ثم دفع من فيه ضحكاً عريضاً ما أظن إلا أنه روع بعض القلوب في صدور أولئك الصبية الصغار ؛ ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : « هذا هو الأزهرى . » ثم رفع يد سيدنا عن كتف ذلك الصبي ووضعها على كتف الصبي الآخر وهو يقول

متضاحكاً : « وهذا هو العفريت » . ثم قال لسيدنا : « أما الأزهرى فاسمه عثمان ، وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أحود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتاب إذا كان الغد ؟ » وهم سيدنا أن يجيب ، ولكن الرجل لم يمهله وإنما قال : « سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد ؛ ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتى من يصحبهما إلى الدار ، فإنهما غريبان لا يعرفان طريق المدينة بعد وليست الدار قريبة من الكتاب » . ثم أتى تحيته بصوته ذاك المرحب الخفيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن ترد عليه تحيته ، وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذى اندفع الكتاب كله فيه ، والذى لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفيا عنه التلاميذ إلا حين أذفا لهم بالانطلاق ليصحبوا غداؤهم ، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن مواعده فلن تغنى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذى لم يكن يقل عن خمسة سباط وربما بلغ العشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يوميهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طراً على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك فى أنه ضابط تركى قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك فى حديثه ، وفى

عربية التي تقرأ من الرطابة والتكسر ولكنها لا تعضي مستقيمة إلى غليتها ، وإنما ينقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقها ؛ بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا في مشقة شاقة وجهه شديد ، وهي إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواء شديداً ، وهي تؤنث الله كثر ، وقد كبر المؤنث ، وتعلم بعض الحروف العربية الأصحاح ؛ وزعم العريف أن هذين الصبيين أختين قدم بلغتا طور الشباب وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوروبيين . وقد سمع سيدنا لكالي هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له ، وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً في الشهر أجراً لتعليم ابنه » .

وكان في المكتتاب صبي لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداهم ؛ لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء في المكتتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله في صدره وحفظه في نفسه ، ولم يكذ يبلغ دأبه بعد أن صليت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأثيرة ، فقالت باسمه : « إنها أسرة للمأمور الجديد ، وستورنا السيدة وابنتاهما بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك » .

٢-٢

ولم يرتفع الضحى من الغد حتى كان الصبي قد تعرف إلى زميله في الكتاب ، عرفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التي تستمتع بحظ من الامتياز ، ولأن هذا الصبي كان حافظاً للقرآن مجوداً له فلم يتردد سيدنا في أن يكلفه لإقراء الصبي الأزهرى ؛ وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحية الغزيرة : « لقد وكلت إليك ذقني ، فأحفظ هذا الصبي ما حفظت وأجد لإحفاظه ، ولا تفضحنى عند أبيه الموظف الجديده الكبير ؛ وقلن أنى وكلت إليك عملا كنت خليفاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبي في نفسه شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئاً ، ووجد في نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربي ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القدره التي كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسر تركية ولا ينحدران من هذه الأسر التي تأتلف

من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبي على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن في القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتابيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتابيب كيف يسرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة في تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التي يصطنعونها فيه . وكان الصبي يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهاكاً عليها ، يكاد ينسى في سبيلها ما وكل إليه من إلقاء هذا التلميذ ، لولا أنه كان يذكّر من حين إلى حين يده الصغيرة في اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته إلى أنه يكلفه عملاً خطيراً كان خليقاً أن ينهض به هو أو أن يكله إلى العريف ، فكان ذلك يردّه إلى القصد ويحمّله على أداء الواجب . وكان النهار يمضي ساعة للقراءة وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبي وزميله متانة واتصالاً ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبي قليلاً وإلى بيت الزميلين غالباً ؛ وكان البيت أنيقاً مترقاً في نفس الصبي يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التي يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سور المرتفع الذي تكسوه الأغصان الخضراء والزهر النضر حديقة عميقة مترامية

الآطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مظلمة لا ترتفع في السماء إلا قليلاً . ولكنها تمتلئ في القضاة وتكثر فيها الحجرات ، وكان لدى بضعاً الصبي . من أمر هذه الدار ويملاً قلبه رضاء وإعجاباً ، أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذي ينسبط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، وإنما يمشي على أرض قلبه بسط فيها البلاط ، وكثيراً ما رآه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلاً وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشحاً ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبي رضاء وإعجاباً أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زبليه حتى ينطلقوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خلاصة لا يسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، وقد خصصت لها يلعبان فيها ، وجمعت لها فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسي ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلعبهما من الرفاق ؛ فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان في القضاة المنبسطة أمام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغليين من الأطفال فيه ، كان لعباً مترفاً في حجرة مترفة ليس للصبي يملأه عهد ؛ وكان ثلاثهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون في حجرهم تلك حتى تلم ربة الدار وأنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة

العذبة ، ثم يخلو الصبية بعد ذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، فقد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشماثل ، عذبة الحديث في لهجة عربية غريبة ، ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء ؛ وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطى ، يسحر نفس الصبي ويملا قلبه فتوناً ؛ فأما الآنستان فقد كانت كبراهما تفيده راتقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك مأكرة حديدة اللسان ، لا ذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط ؛ وكانت أختها الصغرى لإقبال جدوة من نشاط لا تنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها في فيها ، وهي على ذلك حلوة المخضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت في لعبهم ؛ ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبي بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر ، ولكنه يرى ذات يوم في الدار حركة غير مألوفة ، ويخيل إليه أن في الجوار شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ، فقد خطبت تفيده ، وما هي إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام في الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا وقد استصحبوا

تفيدة ، ففقدت الدار من جمالها وبهجتها شيئاً غير قليل .
والحياة مع ذلك ماضية في طريقها في هدوئها المتصل
واطرادها الممل ، والصبي ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ،
ويشاركه في اللعب ، ويخوض معه في فنون الحديث ؛ ولكن
محموداً يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتاب
بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبي
إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلعبه ، ولكن السأم يسمى
بينهما ، وإذا بالصبي ينصرف عنه قليلاً قليلاً ، ويشغل شيئاً
فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة
من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث ، ويقرأون معه
كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا أرب لهم في قراءتها ؛
والصبي مع ذلك يلتقي رفيقيه المترفين في داره حيناً وفي دارهما حيناً
آخر ، ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان في شيء من الحزن
وفي شيء من السخرية أيضاً بأن الضابط التركي القديم من
ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة فأقام فيها أياماً ، ثم عاد
ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع ، وجمال
بارع ، وفتنة فائقة ، وتسلط على الضابط الشيخ عظيم ، وأن
تلك الدار المترفة الأنيقة التي كانت جنة من جنات النعيم ، قد
أصبحت مستقرّاً للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحماً
تصلي فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء

الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبكائها المتواصل واعتكافها في حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط وزوجته الشابة في طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر فينمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة ، ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد ؛ وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذي أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا في اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل ، وفي هذه الوجوه العابسة الكثيبة من حولها ، وفي خفوت تلك الأصوات التي كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفي سكوت تلك الحركات التي كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا في هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لهما من سعادة ، وإنكاراً لما سيق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدى ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كانا يَسْران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة في القحة ، لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشيء وقاراً ؛ فالقبل تختلس في هذه الزاوية أو تلك في غير احتياط أول الأمر ، ثم هي لا تختلس ولا يستخفي بها ، وإنما يتهاذاها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التلسة المحزونة ؛ ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويعتمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكتيب ، فيتهزان الفرص ليظهرها لها

سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها ، ثم يأتي النبا ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت في قلب أبنائها سعيراً أى سعيبر . وقد استقرت هذه الأم البائسة في قبرها المتواضع من وراء النهر ، وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعود الناس أن يفعلوا ؛ وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى الغراء أن تمر : أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن ، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر ، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون في مختلف الأحاديث ، وإنهم لفي ذلك بعد أن صليت العصر ، وإذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو ، سافرة لم تلق على وجهها نقاباً ، وقد اتخذت في إحدى يديها حقيبة صغيرة ؛ فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهم صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبتته في مكانه ، وارتفع صوت تفيده هادئاً رزينا ، فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا هى تقول : « من ظن منكم أنه أقبل للتعبية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل

عزاء وإنما هو حفل فرح وإبتهاج . إن هذا الرجل الذى تمزونه قد قتل امرأته وابتهج بموتها ، ولم يرع حرمتها ، ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، وإنما ازدرى هذا كله فى سبيل سعادته بزوجه الحديدية ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من ملأعبيتها وملأعبيتها فى الجهر ما لا يناله الرجل الكريم ذو المروءة إلا سرا ؛ وكنت فى القاهرة لا أعلم من ذلك شيئا ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت ، فأنكرت أذقأى ولم يصدق قلبى ؛ ولكى أشهد وأشهدكم أنى رأيت ورأى إخوتى ، وفيهم كاعب وصبيان ، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضيا معتبئا مسرورا ولم يحض على دفن أمنا إلا يوم وبعض اليوم ؛ فإن رأيتم بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تمزيكم فأقيموا وإلا فأنصرفوا راشدين .

ثم تحولت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وإنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة . ولست أدري ماذا كان من أمر الجمع المحتشدين بعد هذه الفضيحة ؛ ولكى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم فى المدينة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعم وجحيم ، فأنقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئا ولم يسمع هو عنهم شيئا .

٣-٣

ومضت الحياة في طريقها هادئة مطمئنة ، تعبت بالناس
ويعبث الناس بها ، ويعفى ما يقبل من أحداثها على آثار ما
أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبي من المدينة إلى
أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت
كل أسرة بنفسها عن غيرها ، وشغل كل واحد من أبناء الأسرة
الواحدة بشأنه الخاص عن شئون أهله وذويه ؛ ومضت أعوام
تبعها أعوام . وبلغ الصبي طور الشباب بعد أن خاض إليه
غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من
دروس الجامعة القديمة يداً تمس كتفه ، وصوتاً يحس أذنه ، وتقع
في نفسه هذه الجملة : « ألا تذكرني ! لقد كنت معك في
الكتاب أنسيت العفريت ! » .

بلى ، لم أنس العفريت وهيئات أن أنساه ، وقد استأثر من
قلبي ذاك الناشئ بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم
يلغ أحد من رفاق الصبي أولئك الذين عرفتهم في الكتاب
أو عرفتهم خارج الكتاب ، أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى
أسباب المودة أيام الصبا فكانت عشرين لهم طويلة أو قصيرة .

بلى لم أنس العفريت ، وقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت إلى القاهرة لأطلب العلم فى الأزهر الشريف ، بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجلد من أسباب المودة ما رث ، وأصل منها ما انقطع ، وأنقل من صباى فى المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقه وأتميه ، وأجد فى استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير ؛ ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيخوخ ، دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلاً أو كثيراً ؛ ولم أبح لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما ، ولو قد سألت لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسى أن أسأل ، وما أقل ما كنت أبح لنفسى السؤال ! وما أكثر ما صرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعماماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس فى الأزهر ، ومن تعلم فى المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ما خطبه وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسى هذا السؤال ، فحفظت فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسى حيناً بعد حين ، أختصمها به ولا أظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل على العفريت ذات مساء فمست يده

كثيري ، ومن صوته أذني ، ومست نفسي نفسي ، واستأنفنا في الشباب حياتنا كما ألفناها في الصبا . كان حديث عهد بالجامعة ، يدها في أول العام الذي كنت أريده أنا أن أتركها في آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار ، لا في داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ، ولكن في تلك الحجرة المتواضعة التي كنت آوى إليها أثناء الطلب ، ولم يخطر لي قط أن يدعوني إلى داره ، ولم يخطر لي قط أن أسأله عن هذه الدار ، ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابني من طرف اللسان ، فلما استردته راغ عني بالحوار والتملق إلى حديث آخر ، فأحسست أنه يسحني من أسرته ، فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج في إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادة الثانوية والتحق بالجامعة ، وكنت أحاول أن أعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل في ذلك جهوداً مخططة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغولاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ على بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لي ما كنت أريده أن أعرف من الأدب الفرنسي . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنني لن أنسى أنه قرأ لي أساطير لافونتين ، وقصة « كانديد » ، وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنني لا أبجد إلى ذلك سبيلاً ، وإنما أذكر أني صرفت خادمي وبقيت معه على أن يرهنني إلى داري بعد

أن نفرغ مما أردنا إليه ، ولست أعرف ما هذا الذى أردنا إليه ، ولكنى أحرف أن الليل بلغ نصفه ، وأنا كنا بعيدين عن دارى قرييين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : « لننقق مائل الليل معاً فنقرأ ما أطلقنا السهر ، ثم نعود إلى دارك فى صبحى الغد . » وقد أجبته إلى ما أراد ، فلدنا فى حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألثى على الحصير وسادة ولحاف ؛ فى هذه الحجرة قرأ لى جزءاً عظيماً من « كانديد » ، ولم نتم إلا بعد أن تجاوز الليل ثلثيه ، فلما كان صبحى الغد عدت إلى دارى واستبقيته معى إلى آخر النهار ، وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه أن يتحدث إلى من أمر أسرته بشيء .

ومضت أشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فىمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً ، فقد سافرت إلى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار . وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذى قضينته فى فرنسا ، وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعيتا الجامعة إلى أن نعود قبل أن نتم الدرس وفى نفسى أنى سأجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع ؛ ولكنى أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبى ، فأعلم أن حى

التي فؤيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارى ما وقع في نفسي من حزن
ولوعة ؛ فلاني لم أكتب هذا الحديث لشيء من هذا ، وإنما
أذكر أني سمعت مع رفيقين لي ذات يوم بعد أن صليت العصر
إلى قرافة المجاورين حيث قيل لي إنه دفن ، وأنى أنفقت مع
رفيقي وقتاً طويلاً وجهداً ثقيلاً نلتمس قبره لنهدي إليه التحية
ونضع عليه شيئاً من زهر ؛ فلم تهتد إلى هذا القبر ، فعلمنا
يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر
على قبر ما في قرافة المجاورين ؛ وكنت كثيراً كاسف البال
مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقي يهون علي وينشدني
قول الشاعر العربي القديم :

لقد لامني عند القبور على البكا
رفيقي لتدراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيت
لقبر ثوى بين اللوى فالد كادك
فقلت له إن الشجي يبعث الشجي
فدعني فهذا كله قبر مالك

٦-٦

صفهاء

« كان ذلك ممكناً في تلك الأيام السود ، فأما الآن فقد يسر الله الأمور ، وأتاح لنا أن نخرج من ظلمة البؤس والشقاء ، إلى نور النعيم والرخاء ، فلست أحب أن أخوض ، ولا أن تخوضني في هذا الحديث . » وهمت حنينة أن تتكلم ولكن ابنها نصيفاً أعرض عنها بوجهه ، ونأى عنها بجانبه ، وأشعل سيجارته في شيء من أنفة ، ونهض في شيء من كبرياء ومضى أمامه فترك الحجرة وترك الدار كأنه لم يخلف فيهما أحداً . وظلت حنينة صامته مهوتة ، ثم كفكفت دموعاً كانت تريد أن تسيل ، ثم حزمت أمرها وقلدت في نفسها أنها ستراجع ابنها في هذا الحديث ، ونهضت فأقبلت على أعمال الدار كأن لم يكن بينها وبين ابنها شيء .

وقد استوفيت فيما أظن ما ينبغي أن يستوفيه الكاتب حين يريد أن يستأنف قصة خطيرة أو يسيرة ، فألقيت إلى القراء هذه الحملة الغامضة التي لا يُذكر فيها الفاعل ولا المبتدأ إلا متأخراً ، لأثير في نفوسهم هذه الغرابة التي تدعو إلى الاستطلاع ؛ ثم ذكرت بعد هذه الحملة اسم حنينة وابنها نصيف لتزداد

حاجة القراء إلى هذا الاستطلاع ، ثم فرقت بين الأم وابنها على هذا النحو الغريب المريب ، فبينهما حديث لا يريد الفتى أن يفصل ويتحصرص الأم على أن يتصل ، وهذا الحديث يمس الماضي المنكر الذى خرجت منه الأسرة ، ويريد الفتى أن تنسأ ، وتريد الأم أن تنفى له وتحصرص عليه ، وآية ذلك أنها تكيفكف الدمع وتقدر فى نفسها أنها ستعود إلى الخوض فيه متى لقيت ابنها حين يقبل المساء ، أوحين يسفر الصباح ، وأكبر الظن أنها تؤثر أن تتحدث إلى ابنها فى أول النهار حين يجلس إلى فطوره هادئ النفس مستريح الجسم فارغ البال ، لم يتكلف من أعمال يومه الجديده شيئاً ، ولم يتح له بعد أن يذكر من أعمال أمسه القديمة شيئاً ؛ ذلك خير من التحدث إليه فى المساء ؛ فهي قلما تخلو إليه فى المساء لأنه يروح إلى داره عاجلاً ، فيصيب شيئاً من طعام مع الأسرة كلها ، ثم ينصرف عنها عاجلاً ليلقى أترابه وأصحابه ، فيسمر معهم شطراً من الليل ، ويعود وقد بسط النوم جناحيه على الأسرة كلها فأغرقها فى سبات عميق .

ومن حق القارئ بعد هذا كله أن يعرف حنية ونصيفاً ، وأسرة حنية ونصيف ، وهذا الماضي القائم الذى يكره الفتى أن يستبقى منه شيئاً ، وتحصرص الأم على أن تستبقى منه بعض الأشياء .

ولمست أكره أن أودى للقارىء سخطه في هذا إن قيل أن
 ينتقل معنى في الزمان والمكان جميعاً ، وما أطلب إليه أن ينتقل
 معنى إلى زمان معروف في القدم ، أو إلى مكان معروف في
 البعد ، وإنما نريد أن نعود إلى أول هذا القرن ، وأن نقرأ القاهرة
 إلى مدينة من تلك الأقاليم في مصر الوسطى ، فقد ينبغي لكل
 قصة أن يكون لأحداثها زمان ومكان يختلفان المكان أو تختارهما
 الأحداث نفسها . والشئ الذي أؤكد للقارىء هو أنى لم اختر
 ولم أكن أستطيع أن أختار زمان هذه القصة ومكانها ، كما
 أنى لم اختر ولم أكن أستطيع أن أختار أشخاص هذه القصة
 وأحداثها ، وإنما اخترت طبيعة الأشياء هؤلاء الأشخاص ،
 وأجرت طبيعة الأشياء عليهم ما أجزت من الأحداث ، وأرادت
 أن يكون هذا في آخر القرن الماضي وأول هذا القرن ، وأن أشبه
 القصة وتأثيرها بأشد التأثير وأعنفه ، وأن أدخرها في نفسي
 الشئ لم أكن أعرفه حين شهدت القصة وأدخرتها ، وقد أخذت
 أعرفه الآن حين بدأت أمل هذا الحديث ، فأنا إنما شهدت القصة
 وأدخرتها لأتحدث بها إلى قراء هذا السفر ، بعد أن مضى على
 أحداثها ، ما يقرب من نصف قرن .

بلى أكاد أقطع بأنى لم اختر ، ولم أكن أستطيع أن أختار ،
 أن أتخذ هذه القصة موضوعاً لهذا الحديث ، وإنما هي التي
 اختارتني لتصل من طريق إلى القراء ، ولمست أستطيع أن أبين

لذلك سبباً ؛ لأننى لا أستطيع ، والقارئ نفسه لا يستطيع ، أن أسأل القصة عن السبب الذى من أجله اختارت أن تذاع فى هذه الأيام ، والذى من أجله اختارت أن تذاع من طريقى أنا ، ومن طريق هذه المجلة التى أكتب فيها .

ولأنما أرى أنى قد فرغت أياماً وأياماً ، لموضوع من موضوعات الأدب الفرنسى ، وجعلت أدرسه وأستقصيه لأتخذه موضوعاً لهذا الحديث ، وبلغت من ذلك أكثر ما كنت أريد ، إن لم أكن بلغت كل ما كنت أريد ، وجلست إلى صاحبنى لأملئ عليه ما قدرت إملأه ؛ ولكن صاحبنى لا يسمع منى حديثاً عن شىء يتصل بالأدب الإفرنسى من قريب أو بعيد ، ولأنما يسمع منى بدء هذا الحديث ، ويهم أن يراجعنى ، كما همت حينئذ أن تراجع نصيفاً . ولكنى أعرض عنه بوجهى ، وأنأى عنه بجانبى ، أشعل سيجارى فى شىء من حزم ، وأمضى فى الإملاء ، فيمضى هو فى الكتابة ؛ ويظهر أمامى أشخاص هذه القصة مزدحنين أشد الازدحام ، ملحين أعظم الإلحاح ، كلهم يريد أن يسبق إلى مكانه من هذا الحديث ، كأنما طال عليهم النوم حتى سئموا ، وثقل عليهم النسيان حتى ضاقوا به ؛ فهم يريدون أن يستيقظوا ، وهم يريدون أن أذكرهم أنا ، وأن يذكروهم القراء ، وأن يستردوا بذلك شيئاً من حياة ، وإن كانت حياتهم تلك الأولى لأهون وأشق من أن يفكر فيها أصحابها ، ومن أن

يحرصوا على أن يستردوا منها نصيباً قليلاً أو كثيراً .

وهؤلاء الأشخاص كثيرون بعض الكثرة ؛ فلا بد من أن أصطنع شيئاً من النظام الحازم لأردهم إلى بعض القصد ، ولأظهرهم في أماكنهم المقسومة لهم من هذا الحديث . وأما كنهم هذه لم أقسمها أنا لهم ، وإنما قسمتها لهم حياتهم الأولى نفسها ؛ فهم يؤلفون أسرتين قبطيتين من أسر الريف ، كانتا تعيشان متجاورتين قد أنشأ الحوار بينهما ما ينشئ عادة بين الجيران من المودة والألفة ، ومن العشرة المتصلة والاختلاط الدائم في غير تكليف ولا عناء ، ومن هذا الاشتراك في لذات الحياة وآلامها ، وفي مسرات الحياة ومساءاتها ، وفي هذه الأحداث التي تحدث ، والخطوب التي تلم ، والنواب التي تنوب . وكانت أسرة المقدس ميخائيل تادرس في دار ليست بالمسرفة في السعة ، وليست بالمسرفة في الضيق ، وإنما هي دار متوسطة ، تألفت من حجرات قليلة ، لا يظهر عليها الثراء ، ولا يظهر عليها الضر ، ولا يظهر عليها ما يلفت إليها أحداً . كانت داراً متواضعة وإن لم تكن حقيرة ، وكانت تقوم في أول الشارع مما يلي القناة على منحدر يسير يكلف الساعي إليها قليلاً من الجهد ، فينحدر إليها إن جاء من هذه الناحية ، ويصعد إليها إن جاء من تلك الناحية ، ولا يسعى إليها سعياً هيناً على كل حال ؛ وكان المقدس ميخائيل صاحب تجارة يسيرة هينة ،

قد اتخذ له سحابتين ، يبعد عن ناله بعض البعد ، يبيع فيه سقط
المتاع من هذا الحرز الذي يتخذ الفقراء منه عقوداً يتحلّى بها
النساء والفتيات ، ومن هذا الزجاج الملون الذي يتخذ النساء منه
أساور أو دوائر مفرغة يداخلن فيها سواعدهن ، أو يدخلنها في
سواعدهن ، ويبهرن أنفسهن كما يبهرن الرجال بلوانها الزاهية
وريشها الخلو ، وشيثاً من الأقمشة الرخيصة التي يتخذ منها نساء
الريف ثيابهن حين يفضلن ، وذيبتهن حين يتبرجن .

وكانت سحابتوه شهيرة خاصة بهذه العصابات المطرزة التي
كان النساء يدورن حول رؤوسهن ، فبقنّ بها الرجال ويسحرون
بها عيون الشباب ، وكان المقدس ميخائيل يفيد من تجارته هذه
اليسيرة ما يتيح له أن يكفل لأهله حياة إن لم تكن رخيصة كل
الرخاء فلم تكن ضيقة كل الضيق ، وإنما كانت شيئاً بين
ذلك ، يسمح لهذه الأسرة أن تروى نفسها من الطبقة المتوسطة وأن
تطمح إلى ما تطمح إليه هذه الطبقة من الآمال التي كانت في
ذلك الوقت متواضعة أشد التواضع .

ولم تكن هذه الأسرة ضخمة ولا كثيرة العدد ، وإنما
كانت تتألف من ميخائيل ، وزوجه حنينه ، ولبنهما نصيف ،
وابنتهما صفاء ، وبواضح أن هذا الاسم لم يكن ينطق على هذا
النحو الفصيح ، وإنما كان ينطق به مقصور الألف لا مملوءها ،
وكان النطق به يؤثر في نفوس السامعين أنه مستعار من تلك

الغدائر المعدنية التي كان النساء يصلنها بشعورهن ويرسلنها على ظهورهن ، ويُسَمَّع لها حين يقمن ويقعدن ويسعين صليل يعجب الأذان .

وقد طمع ميخائيل أن يرفع ابنه عن المنزلة التي كتبت له هو في الحياة ، فلم ينشئه في التجارة ليخلفه في الحانوت حين تقعد به السن ، وإنما أرسله إلى المدرسة المدنية ، بعد أن اختلف إلى الكتاب القبطي عاماً وبعض عام ، وأضمر فيما بينه وبين نفسه ألا يكتفى بالمدرسة الابتدائية ، وأنه يرسله إذا استطاع إلى القاهرة ليتعلم في بعض مدارسها ، وليكون موظفاً من موظفي الحكومة ، وليسلك بنفسه طريقاً جديدة غير الطريق التي سلكها هو وسلكها أبوه من قبله .

وطمعت حنينه في أن ترفع ابنتها عن المنزلة التي قسمت لها هي في الحياة ، فأرسلتها إلى « المعلمة » كما كانت الأمهات في الطبقة المتوسطة يرسلن إليها بناتهن ، ليتعلمن عندها فنوناً من التطريز والتدبيج ، والتأنق في التفصيل وصناعة الأزياء . وقد اختلف الصبي إلى المدرسة ، واختلفت الصبية إلى المعلمة ، ورضيت الأسرة عن نفسها وعن تربيتهما لابنهما أعواماً . وظفر الصبي بالشهادة الابتدائية بعد جهد ، وأخذت الصبية من فتون المعلمة ما استطاعت أن تأخذ ؛ ونظرت الأسرة فإذا هي مضطرة أن ترسل الصبي إلى القاهرة ، وإلى أن تمسك الصبية

فى الدار . والله يعلم ما تكلف المقدس ميخائيل من الجهد ليدبر ما يحتاج الفتى إليه من النفقات ، وما احتملت حنينة من الحزن لفراق ابنها الوحيد . وقد ألحق الفتى بمدرسة ثانوية ، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم ، عاماً وعاماً وعاماً دون أن يصيب فيها نجحاً ، وإنما هى السنة الأولى يقيم فيها العام بعد العام ، ثم تضطر المدرسة إلى فصله لكثرة ما أخفق ، فيلحق بالمدرسة القبطية الكبرى التى كانت فى ذلك الوقت تتلقى من تفصلهم المدارس الحكومية من الشباب المحققين ، أو من تحول السن بينهم وبين الالتحاق بالمدارس الحكومية ، أو من تقصر أيدي آبائهم عن أجور التعلم فى مدارس الدولة ، وتطول مع ذلك آمال آبائهم ، فيأبون ألا أن يتعلم أبنائهم حتى يبلغوا الشهادة الثانوية ، لعلهم أن يجدوا لأنفسهم مكاناً فى مدرسة من المدارس العالية ، أو عملاً فى ديوان من الدواوين . وقد أقام نصيف فى المدرسة الحرة عاماً وعاماً ولكنه لم يصب فيها نجحاً كما لم يصب فى المدرسة الحكومية نجحاً . وثقلت النفقة على أبيه ، وثقل الحزن على أمه ، وضاق الفتى بأبيه وأمه ونفسه أيضاً ، وإذا هو يقترح على أبويه ذات عام أن يتحول عن التعليم الثانوى الذى لم يخلق له ، إلى تعليم آخر يسير قريب ، لا يحتاج إلى كثير من ثقافة ، ولا إلى إلحاح فى عمل ، ولا إلى فضل من جهد ، ولا إلى طویل من وقت . وإنما هو عام أو بعض عام ، ثم يتقدم الطالب

إلى الامتحان ويظفر بالدبلوم ، ويشغل منصباً من مناصب الدولة . وكذلك التحق الفتى بمدرسة التلغراف ، وما هي إلا أن ينفق فيها الفتى عاماً أو أقل من عام ، ثم يتقدم للامتحان فيصيب ما أراد من نجاح ، ويعود إلى أهله ومعهم الدبلوم قد لقه لفناً أنيقاً ، ووضعته في حوز أنيق اتخذ من الصفيح . وجعل الأب ينظر إلى الدبلوم يحاول أن يقرأ ما فيه ، وجعلت الأم تنظر إلى الدبلوم تعجب بزينته ، واختصم الأبوان بعض الاختصاص أيهما يحتفظ بهذه العلبة من الصفيح ، أتلسها الأم بين ثيابها ، أم يحقها الأب في درج من أدراج مكتبه القديم ؛ ولكن المهم هو أن المقدس ميخائيل كان قد بلغ من الجهد أقصاه ، فأثق أكثر مما كانت تجارته تغل عليه ، واحتمل من المشقة أكثر مما كانت منه تستطيع أن تحتمل ، وباع في سبيل هذا الفتى ما كان عند زوجه من الحل المتواضع ، واضطر الأسرة إلى شيء من الفقر الضيق البغيض الثقيل الذي لا يطاق ، لولا شيء من فسحة الأمل . ولم يلزم الفتى ما أدرك من نجاح حتى كان المقدس الشيخ مضطراً إلى أن يقعد في داره ، ويستظر الرزق من هذا المرتب الضئيل الذي كانت الدولة تعجبه حيثئذ على الموظفين في البرق أول ما ينهضون بأعمالهم .

وكانت الدولة بخيلة حقاً في تلك الأيام ؛ فقد كان حامل الدبلوم يلحق بمكتب من مكاتب البرق على سبيل التجربة

والتمرين ، ويؤجر في أثناء ذلك ثلاثة جنهات في الشهر ، لا تحسب له جملة ، وإنما تحسب له مياومة أثناء التمرين ، عشرة قروش في اليوم لا تزيد . ولم يكن حامل الدبلوم حراً في اختيار مكتب البرق الذي يعمل فيه ؛ ومتى كان عمال الدولة وموظفوها أحراراً في اختيار المكاتب التي يعملون فيها ؟ إنما كانت الدولة ترسل هؤلاء الموظفين والعمال حيث تشاء وحيث يقتضي النظام أن يرسلوا ، فأرسل الفتى إلى أقصى الصعيد ، وأقامت أسرته في أدناه ، وجعل الفتى يقبض أجره آخر الشهر ، فيرسل نصفه إلى أسرته لتعيش ، وينفق نصفه الآخر على نفسه . وعلم الفتى وعلمت أسرته أن الآمال لا تصدق أصحابها دائماً ، وإنما تكذبهم في كثير من الأحيان ؛ فقد ظفر الفتى بالدبلوم وشغل منصباً من مناصب الدولة ، وأصبح فرداً ممتازاً من هذه الطبقة الممتازة ، طبقة الموظفين ، ولكنه ما زال فقيراً باتساً محتاجاً ، وما زالت أسرته متوسطة ترد إلى الفقر يوماً بعد يوم ، وتدفع إلى الضيق عاماً بعد عام ؛ والفتى بعد ذلك فرد ممتاز من طبقة ممتازة ، والامتياز يكلف أصحابه كثيراً من المال ؛ فلا بد من أن يعيش الفتى بين أترابه عيشة ملائمة ، ومن أن يتخذ من الزينة ما يلائم طبقته ، ومن أن يحيا حياة لا ينظر إليها أترابه في شيء من الاستخفاف به أو الاشفاق عليه ؛ وكان هذا كله يرهق الفتى من أمره عسراً ، وربما اضطره بين حين وحين إلى ألا

يرسل إلى أبيه ما تعود أن يرسل إليهما من النقد ، أو أن يرسله إليهما منقوصاً ؛ فكان هذا يحفظ الأسرة ويغنيها ويضئها ؛ فلم تكن حاجتها إلى الحياة الملائمة بأقل من حاجة الفنى ، والفنى وحيد ، وهى أسرة مؤلفة من أشخاص ثلاثة ، فحقها أن يرسل إليها أكثر المرتب ، وأن يكتفى الفنى بأقله ؛ فكيف إذا لم يرسل إليها إلا أقله ! وكيف إذا لم يرسل إليها شيئاً ! وهى بعد ذلك قد أفنت عمرها وجهدها وكل ما ملكت فى سبيل هذا الفنى ؛ فانظر إلى الأبناء كيف يحدون حقوق الآباء ، وانظر إلى الشباب كيف يكفرون بنعمة الشيوخ ، وانظر إلى هؤلاء الفتيان الناشئين كيف يؤثرن أنفسهن بالخير ويحتصنهن باللذات ويتركون آباءهن وأمهاتهن وأخواتهن يشقون بالنقص فى الأموال والثمرات ، بل يشقون بالبؤس والجوع والحرمان . وكذلك أنفقت الأسرة بعد نجاح ابنها فى الامتحان وظفره بالمنصب أعواماً ، ذاقته فيها من البؤس المادى والمعنوى ما لم تذقه حين كان الفنى صبياً يختلف إلى المدرسة الابتدائية ، أو غلاماً يختلف إلى المدارس فى القاهرة .

أما الأسرة الأخرى فآسرة المعلم يونان . كان زعيمها كاتباً متواضعاً فى دائرة من دوائر الترك ، ينفق نهاره عاكفاً على دفاتره ، أو محاسباً للناظر ، أو مراقباً للمعاون ؛ ويعود إلى أهله آخر النهار راضياً عن نفسه ولكنه متعب مكثود ، فلا يكاد يصيب معهم

شيئاً من الطعام ويسمر مع جاره شيئاً من سمر، حتى يأوى إلى مضجعه وقد بلغ الإعياء به أقصاه ؛ ثم لا يكاد الصبح يتنفس حتى يراه في الطريق العامة غادياً على عمله في الدائرة أو في الحقول . وكان الأجر الذي يصيبه من هذا العناء قليلاً ضئيلاً لا يكاد يقيم الأود لأسرة تألفت من ثلاثة أشخاص ، هم المعلم يونان ، وزوجته مرجانة ، وابنهما عبد السيد .

وكان المعلم يونان رجلاً متواضعاً ، لا يرفع نفسه عن طبقته ، ولا يحاول أن يرفع ابنه عن هذه الطبقة ، وإنما حاول أن يعلم ابنه مهنته هو ، ليكون كاتباً في الدائرة ، كما كان هو كاتباً في الدائرة ، وكما كان أبوه من قبله كاتباً فيها أيضاً . وكان أقصى همه أن يحسن الصبي الأخذ عنه والاقتداء به ، حتى إذا أدرك أول الشباب استطاع أن يعينه على عمله ، وأن يلتفت إليه المأمور لعله أن يرضى عنه ويعطف عليه ؛ فيأجره قرشين أو قروشاً في اليوم تعين الأسرة على احتمال أعباء الحياة . ولكن الصبي لم يكن ذكياً القلب ، ولا محبباً للعمل ، وإنما كان كلاً خاملاً ، يؤثر اللعب حين تسنح له فرصة اللعب ، فإن لم تسنح له أثر حياة هادئة هي إلى الذهول أقرب منها إلى أى شيء آخر ؛ وكان ذلك يغيظ أباه ويحفظه ويُدفعه أن يقسو عليه أحياناً ؛ ولكنه كان وحيد أبويه ، فكان المعلم لا يعنف به إلا ليرق له ، ولا يشق عليه إلا ليرقى به .

والسن تتقدم بالمعلم حتى يحس الضعف عن النهوض بأعبائه ،
والفتى يتقدم في العلم بمهنة أبيه متباطئاً متثاقلاً ؛ حتى إذا اضطر
الشيخ إلى القعود في داره كان الفتى أجهل وأكسل من أن يقوم
مقامه ، فلم تستبقه الدائرة إلا رعاية لحن أبيه ورقفاً بأسرته ،
ولم تمنحه من أجل ذلك إلا نصف ما كانت تمنح أباه من
الأجر .

واضطرت مرجانة أن تبرح الدار ، وتسعى بعض السعى
على شيخها القاعد لترزقه ، وعلى ابنها الخامل لتعينه ؛ فجعلت
تسعى إلى القرى القريبة تشتري من أهلها ما يريدون أن يبيعوا
من جنبهم وزبدتهم ، تحمل في ذلك قصعة ضخمة ، وتغطيه
بشيء من العشب الأخضر الرطب يحفظ عليه رطوبته ويجذب
إليه العيون ، وتطوف بذلك على بعض البيوت ، فتبيعه فيها بما
يتيح لها شيئاً من ربح يتم لزوجها وابنها ما يحتاجان إليه .

وقد سعت الأسرتان المتجاورتان في طريق واحدة إلى
الضيقة ، ثم إلى الضيق الشديد ؛ ثم إلى الإعدام والحرمان ،
فازدادت الصلات بينهما قوة ، وفرغ الشيخان القاعدان للبطالة
والحديث . وجعلت مرجانة وحنينة تلتقيان حين يسفر الصبح
وحين يتقدم النهار ، تتقارضان المنافع وتتعاونان على أئقال الحياة ،
وتتجاذبان أطراف الحديث كما يقال ، وجعلت صفاء (بألفها
الممدود أو المقصورة) تلقى عبد السيد يغدو إلى عمله في الدائرة ،

وحين يروح من عمله إلى الدار ، فيكون بينهما ما يكون بين الفتيان من هذه الأحاديث الفارغة ، التي لا تؤدي شيئاً ولا تدل على شيء ، وإنما تشغل أصحابها عن أنفسهم ، وتلهيهم عن آمالهم . ولكن الشاب ماكر ماهر ، ينهر القرص ، ويختلس الوسائل اختلاساً ، فهو يشيع في هذه الأحاديث الفارغة بين حين وحين ما يريد أن يملأها ، فيعجزه ذلك في أول الأمر ، ولكنه لا يعرف العجز ، ولا البأس ولا الإخفاق ، وإنما هو ملح دعوب ، يخطئه النجاح هذه المرة فلا يرده ذلك عن استئناف المحاولة ، وهو يسلك إلى غايته طرقاً مختلفة ملتوية ، لا يحسن العلم بها إلا الذين محصتهم الحياة وعلمتهم التجارب . وأين الفتيان الفارون من تمحيص الحياة وتعليم التجارب ! كلمة تنطق بها صفاء ، فإذا الشباب يجرى فيها عذوبة غير مألوفة ، ويوقعها من أذن عبد السيد وقلبه موقعاً غير مألوف ، وحركة يأتي بها عبد السيد ، فإذا الشباب يجرى فيها رشاقة غير مألوفة ، ويوقعها من عين صفاء وقلبها موقعاً غير مألوف ، وإذا الفتى مشغول بهذه الكلمة العذبة ، يريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها ، وإذا الفتاة مشغولة بهذه الحركة الرشيقة ، تريد أن تتكرر وأن يضاف إليها أمثالها . وإذا كلاهما مشغول بصاحبه حين يلتقاه ، ومشغول بصاحبه حين يتأى عنه ، ومشغول بصاحبه حين يقبل الليل ، ومشغول بصاحبه حين يسفر

النهار ، وإذا اللقاء الذى كاد يكون بينهما على غير موعد وعلى غير نية ، قد جعل يصبح شيئاً تدبر له الخطط وتبغى إليه الوسائل ؛ وإذا الحديث الذى كاد يكون بينهما فارغاً ليس وراءه شيء ، قد جعل يصبح مليئاً وراءه كثير من الأشياء ، وإذا الأسرتان تلاحظان أن هذين الفتيين شأناً ، فلا تنكران ولا تعرفان أول الأمر ، ثم تبسم قلوب الشيوخ لهذه الصلة الناشئة بين هذين القلبين الشابين ، ثم يتحدث المقدس ميخائيل إلى حنية ، ويتحدث المعلم يونان إلى مرجانة ، ولا تقول إحدى الأسرتين للأخرى شيئاً ، وإنما تنتظر كلتاهما أن تكون الأخرى هى التى تبدأ الحديث . والشباب لا يحفل بما يشور فى نفوس الشيوخ من خواطر ، ولا بما يضطرب فى عقولهم من تفكير ، وإنما هو ماضى لغايته لا ينظر إلى وراء ، وإنما ينظر إلى أمام ، وإلى أمام دائماً ، حتى لا يلفت الأسرتين وحدهما إلى نفسه وإلى ما أحدث من صلات ، وإنما يلفت أسراً أخرى من الجيران . وهناك يتنبه الشيوخ ؛ فتتحدث مرجانة إلى حنية ، ويتحدث المعلم إلى المقدس ، وتصبح الخطبة شيئاً مقررأ متفقاً عليه .

ونصيف مقيم فى غربته تتقاذفه المدن فى أعلى الأرض وفى أسفلها ، وقد ثبت فى منصبه فلم يقبض أجره مباومة ، وإنما أصبح موظفاً بالمعنى الصحيح الدقيق ، وزيد مرتبه

حتى بلغ أربعة جنيهاً ونصف جنيه، يحسم منها المعاش آخر الشهر، ولكن مرتبه قد زيد على كل حال، إلا أنه لم يزد وحده، وإنما زادت معه نفقات الفتى وتكاليف حياته بعد أن أصبح موظفاً مثبتاً. زاد مرتب الفتى، ولكن نصيب أبويه من هذا المرتب لم يزد وإنما ظل كما كان: يصل إليهما أحياناً كاملاً، وأحياناً منقوصاً، ويتخلف عنهما بين حين وحين.

ويقبل الفتى ذات يوم في إجازة من إجازات الموظفين ليرى أسرته، فترى المدينة منه شاباً رشيقاً أنيقاً لم تعرفه من قبل، وترى زينة ورواء لا عهد لها بهما عند أمثال هذا الفتى من شبابها بين أبناء الزراع والتجار؛ ويرتفع رأس المقدس حين يرى إعجاب الناس بابنه واحتفاءهم به، واحتشاد النسوة والصبية لرؤيته حين يمر بهذا الشارع أو ذاك، وبهذه الحارة أو تلك؛ ويمتلئ الفتى بنفسه تهاً وإعجاباً حين يرى تهافت الناس عليه وسعيهم إليه، يحيه بعضهم من قريب، ويحييه بعضهم من بعيد، ويعجب به أولئك وهؤلاء، ويرى فيه مع ذلك أولئك وهؤلاء شيئاً من الكبرياء، فينكره بعض الناس في قلوبهم، وينكره بعض الناس بألسنتهم. ويشفق الأب والأم على ابنهما من حسد الحاسدين، ويتمنى الأب والأم أن يقيم ابنهما فيطيل المقام ليستمتعا به ولينعما بمحضره، ويتمنيان مع ذلك أن يعجل السفر ليأمن كيد الكائدين وحسد

الحاسدين . ويعود الفتى بعد أيام إلى عمله ، وقد رضى عن نفسه ورضى عنه أبواه ، ورضى عنه أكثر أهل المدينة ووافق به أقلهم . وكأنما ألم الفتى بهذه المدينة لإمامته القصيرة تلك ، ليودع أباه ويراه للمرة الأخيرة ؛ فإيكاد الفتى يسافر وتمضى على سفره أيام حتى يحس المقدس من الضعف ما يحس الشيوخ ، فلا يكاد يحفل بذلك ولا يلتفت إليه ؛ ولكن الضعف يزداد ويلح ، والشيخ يثقل ويضطر إلى لزوم داره ، ثم إلى لزوم فراشه ، ثم إلى فراق هذه الدنيا . ويعود الفتى مرة أخرى إلى المدينة حزينا كئيبا ، ولكن الحزن والكآبة لم يزيدها إلا وشاقة وأناقة واستهواء لقلوب الناس ، واستجلابا لحبهم له وعطفهم عليه ؛ فقد ذهب بكثير من فرحه ومرحه واعتداده بنفسه واستخفافه بغيره ، ورداه إلى شيء من الدعة والاتزان واعتدال المزاج .

ومهما يكن من شيء فقد ألقى في روع الفتى أنه أصبح بعد موت أبيه رجلا يحتمل التبعات وينهض بأعمال الأسرة . وقد واجه التبعات والأعباء مواجهة حسنة ، فشمّل أمه وأخته بكثير من العطف والرعاية ، وجد واجتهد وسعى ووسط غيره في السعى حتى استطاع أن ينقل نفسه من مدينته تلك البعيدة التي كان يعمل فيها ، إلى مدينته هذه التي تقيم فيها أسرته ؛ وإذا هو موظف في مكتب البرق بالمدينة يقيم في أسرته ويرعاها ،

ويقوم منها مقام أبيه .

وتحضى أمور الأسرة كما تستطيع ، أو على خير ما تستطيع ،
فقد أقام الفتى فى داره وعاش مع أهله ، ودبر أمره خيراً مما
كان يدبره أثناء الغربة ، فاستقامت له ولأهله حياة لم تكن
تستقيم لهم من قبل . وكم تمت حنية — لو كان ينفع التقي —
أن يعود المقدس فيشارك فى هذه الحياة ، وينعم بها ، ويسعد
برؤية ابنه غادياً على العمل أو رائجاً إلى الدار ، فى زيه
ذاك الجميل ، وشكله ذاك الوسيم ، ومنظره الذى يملأ القلوب
روعة ورضاً .

وتتصل أسباب الفتى بزملائه الذين يعملون معه فى مكتب
البرق ، وبزملاء آخرين يعملون فى المحطة ، وبجماعات أخرى
من الموظفين يعملون فى المحكمة أو فى مكتب البريد ؛ وإذا
هو يرقى بأمرته حقاً إلى هذه الطبقة الممتازة التى طالما ود
أبوه لو يرقى بها إليها ؛ وإذا هو ممتاز بين هؤلاء الموظفين
الممتازين حين يلتقون من آخر النهار أو من أول الليل فى
قهوة ذلك الرومى التى كانت تقوم على شاطئ القناة قريباً
من المحطة ، والتى كان الموظفون ، ولا سيما الشباب منهم ،
يسعون إليها حين يلدنو الأصيل ، فيقيمون فيها فرحين لاهيين
مداعيين حتى يتقدم الليل .
وفى ذات صباح يجلس الفتى إلى فطوره وأمه إلى جانبه

تنظر إليه وتعجب به ، وأخته صفاء قائمة بين يديه تخدمه ،
تذهب وتجيء مقدمة هذا اللون رافعة هذا الإزاء ، وإذا
الفتى يحتال حتى يبعد أخته ، ويخلو إلى أمه فيلقى إليها في
همس سريع أو سرعة هامة ، أن زميله فلاناً يخطب إليه
أخته ، وأنه سعيد بهذه الخطبة ، يرى فيها مزيداً من رقي وفضلا
من رخاء ؛ فهذا الزميل فتى كريم من أسرة كريمة ، قد فقد
أبويه ، فهو لإذن سيد نفسه ، وهو يقبض في آخر الشهر مرتباً
كالذى يقبضه هو ، وهو يريد أن يكون له أخاً ؛ وإذا
قبلت خطبته وتم زواجه فسيعيش في الدار ، وسيكون لأمه
ابناً ثانياً ، وسيجتمع المرتبان ، وستفرق الأسرة في نعيم ورخاء
لم تكن لزوجهما أو تفكر فيهما . وتسمع الأم هذا الحديث
فيقع من قلبها موقعاً غريباً فيه كثير من الإغراء ، ولكنه يثير
كثيراً من الحزن والخوف والأسى ؛ فابنتها مخطوبة أو كالمخطوبة
بحارها الفتى ؛ قد ذهب زوجها إلى الدار الآخرة وهو مقر لهذه الخطبة
راض عنها مغتبط بها ، وفي نفس ابنتها شيء من هذا الفتى
الجار ، ليس في ذلك شك . ثم تثوب الشبيخة إلى نفسها بعد
أن شكت غير طويل ، وتقول لابنها في صوت هادئ رزين :
وددت أو كان ذلك يابني ، ولكن أختك مخطوبة أو كالمخطوبة ،
قد أحبا جارنا عبد السيد ، وكأنها تحبه ، وقد تحدثنا في خطبتهما
وقبلها أبوك . ولا يكاد الفتى يسمع حديث أمه حتى تأخذه .

الكبرياء ، ويعاوده الاعتداد بالنفس ، ويقول لأمه فى صوت المغضب الذى كادت تخرجه الموجدة عن طوره : « كان هذا فى تلك الأيام السود ، فأما الآن فما أحب أن أخوض ولا أن تخوضى فى هذا الحديث . » ثم يشعل سيجارته فى أنفة وينهض فى كبرياء مثاقلة ، وينصرف عن الحجرة ، ثم ينصرف عن الدار وكأنه لم يخلف فىهما أحداً .

وقد صبرت حنية نفسها عن هذا المكروه ، فلم تتحدث فيه إلى ابنتها ، وأزمت أن تراجع فيه ابنتها ؛ وراجعت مرة ومرة ، ولكنها لم تظفر منه بشيء ولم تلق منه إلا ازوراراً وإعراضاً ، حتى أنذرهما ذات يوم بأنها إن لم تدعن له فسينقل من هذه المدينة كما انتقل إليها ، وسيستأنف حياته تلك الغريبة المشردة ، وسيتركها تعيش مع ابنتها فى ظل هذا القتي الغافل الذى لا غناء فيه ، وسيُرسل إليها ما يستطيع أن يرسل إليها من المال ليعينها على العيش كما كان يفعل فى حياة أبيه .

ولم تعود الأمهات فى مثل هذه البيئة مقاومة أبنائهن ، وإنما تعودن الإذعان لهم والاستجابة إلى ما يريدون . والفتى يقوم مقام أبيه ، فهو سيد الأسرة وصاحب الأمر والنهى فيها ، لا ينبغي أن يلقى منها مقاومة ولا اعتراضاً ؛ فما أيسر ما تدعن حنية لابنها ، وما أسرع ما تحاول أن تحمل صفاء على الإذعان ؛ و صفاء ليست فى حاجة إلى أن تحمل على

الإذعان ، فهي مدعنة بطبعها لما يريد أخوها ولا تحب أمها .
ومنى استطاعت الفتيات أن يخالفهن عن أمر الإخوة والأمهات !
هي إذن مدعنة الإرادة ، ولكنها ناثرة القلب ؛ وقد
بذلت حنية جهداً غير قليل لتغري ابنها بمثل ما أغراها به
ابنها من الرخاء والنعيم ، وارتفاع المنزلة ، وامتياز الطبقة ، وبما
سيتاح لها من زينة وترف لم تكن لتظفر بهما لو اقترنت إلى
هذا الفتى المتواضع الفقير الذى لا يكسب قوته إلا بالجهد
والمشقة ، وسعى أمه لتعينه على تحصيل ما تحتاج الأسرة إليه ؛
وكانت صفاء تسمع لهذه الأحاديث ، فتدعن إرادتها ويثور
قلبا ، وتحاول أن تظهر الرضا فلا تجد إلى إظهاره سبيلا .
ثم يخرج نبأ هذه الخطبة من دار حنية إلى دار مرجانة ،
ثم إلى غيرها من الدور ، ويصبح حديث أهل الشوارع ، ثم حديث
من يعرف الأسرة من الناس ؛ فأما مرجانة فتسمع ولا تقول
شيئاً ، وأما المعلم يوفان فيسمع ويبتسم ولا يزيد على أن يقول :
وأين يكون ابنتنا من هذا الفتى ، وابنتنا كاتب لا يكاد يكسب
قوته ، وهذا الفتى موظف ممتاز ! وأما الناس فأقلهم يعبط صفاء
وأكثرهم يحسدها ؛ وأما عبد السيد فيثور ويثور وينثر مرة
باقتراف الجريمة ، ومرة أخرى بقتل نفسه ، ثم يرد إلى هلهو
منكر من ورائه شر عظيم .
فهو يغلو ويروح بين أهله وعمله قد انطوى على نفسه ،

وانطوت نفسه على ما فيها ، فهو لا يتحدث إلى احد في هذه الخطبة الملعنة ، وفي هذا الزواج المنتظر ، ولا يجب أن يتحدث إليه أحد فيهما ، وإذا تحدث الناس إليه في شيء من ذلك أعرض عن الحديث ولم يلق إليه بالا ، كأنه غريب عن هذه البيئة التي يعيش فيها ، لا يعنيه شيء مما يفعل الناس حوله أو يقولون .

وقد كانت مرجانة تهيب نفسها لتفيض على ابنها شيئاً من عطف ، وفضلاً من حنان تريد أن تعزیه عن محنته ، وتواسیه في هذه الملمة التي نزلت به فبغضت إليه الحياة وألقت بينه وبين الأمل حجاً صفاقاً وأستاراً كثافاً ، ولكنها لم تر من ابنها حزناً ، ولم تسمع منه شكاة ؛ وحاولت أن تنفذ إلى ذات نفسه فلم تبلغ مما حاولت شيئاً ، وظنت آخر الأمر أنها أكبرت من هذا الأمر صغيراً ، وعظمت منه حقيراً ، وأسرفت في حسن الظن بابنها ، فقدرت أنه كان يجب ويسعد بالحب ، وأن هذه الخطبة قد ردتته من الكآبة والحزن واليأس إلى ما لا يطاق ؛ ولكنها تنظر فترى ابنها ساهياً لاهياً ، لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشيء ، ولا يظهر عليه ما يدل أنه حزين أو يائس أو كئيب ؛ فقد كان الفتى عابثاً في حبه إذن ، وهو الآن غافل بعد أن قطعت الأسباب بينه وبين هذا الحب ، ينتظر أن تتاح له فرصة أخرى لعبث آخر مع

فتاة غير هذه الفتاة . وليس من شك في أن مرجانة لم تنعم بما لاحظت من سهو ابنها وطموه وغفلته ، وإنما آذاها ذلك في نفسها ، وأضاف إلى حزنها القديم حزناً جديداً ، وإلى ما ألفت من خيبة الأمل في فتاها الذى لم يكن يحسن العمل كما كان يحسنه أبوه ، ويكسب من المال كما كان يكسب أبوه ، خيبة أمل جديد في فتاها الذى لا يحسن أن يحب ، ولا يحسن أن يأسى حين تنقطع به أسباب الحب ويحال بينه وبين من يهوى ، وهى ترد عطفها وحنانها ورحمتها وإشفاقها إلى نفسها البائسة الكئيبة التى كانت تريد أن تعجز شيئاً من الروح في إظهار ما تكنه نفوس الأمهات من العطف والحنان والرحمة والإشفاق . ولست أدرى ¹³² الأمرين كانت مرجانة أشد تأذياً : بخيبة أملها المحددة في ابنها الوحيد ، أم بما اضطرت إليه من كبت عواطفهما ورد نفسها إلى الإجداب بعد أن كادت تخصب ، وإلى الفقر بعد أن كادت تنفى ، وإلى الموت بعد أن همت بالحياة . وليس شيء أدفع لنفوس الأمهات إلى اليأس القاتل من هذا الحرمان الذى تُرد إليه رداً وتكره عليه إكراهاً ؛ فما نفس الأم إذا لم تجد العطف على ابنها ، والرحمة له حين يألم أو يتعرض للألم ؟ وما نفس الأم إذا لم تجد الرضا والغبطة والإعجاب حين يأتى ابنها بما يدعو إلى الرضا والغبطة والإعجاب ؟ وهذه مرجانة قد حيل بينها وبين الرضا عن ابنها والإعجاب به

منذ وقت طويل ، وهي ترى جارتها حنينة ترضى على ابنها نصيف كل الرضا وتعجب به كل الإعجاب ، ويزيد رضاها وإعجابها أن الناس من حولها يكبرون الفتى ويقدرونه ويشنون عليه ، ولا يدعونها باسمها كما كانوا يفعلون في بعض ماضي من الوقت ، ولا يدعونها بأمر نصيف كما كانوا يفعلون بعد أن ولد ابنها ، وحين كان صبيّاً أو شابّاً يختلف إلى المدارس ، وحين كان موظفاً غائباً لا تراه العيون ولا تحقق النفوس ما يمتاز به من الرشاقة والاناقة وجمال الزى وروعة المنظر ، وإنما يدعونها أم الأفتدى . يلقون المحزة ، ويلقون فتحها على اللام فيقولون « أم لفتدى » .

حيل بين مرجانة وبين الرضا عن ابنها والإعجاب به منذ تبينت أنه حامل خامد ، لا يغنى غناء أبيه ، ويحال بينها الآن وبين ما بقي لها من أن تشمل ابنها بالعطف والرحمة والحنان حين يلم به الخطب أو يلح عليه الهم أو ينزل به المكروه ؛ فابنها لا يحس خطباً ولا همّاً ولا مكروهاً ، ولا يجد حاجة إلى عطف أو رحمة أو حنان ، ولو قد شملته أمه بشيء من ذلك لما أحسه ولا ذاقه ولا التفت إليه . هي إذن شقية بنجية الأمل ، شقية يكبت العاطفة ؛ وهي تحاول أن تتحدث إلى زوجها الشيخ في بعض ذلك ، فلا تسمع منه إلا هذا الجواب يرده عليها في ابتسامة حزينة ساخرة : وأين يقع ابنتا الحامل الخامد البائس اليائس ، من هذا الفتى الجميل الوسيم الذى تبسم له الحياة !

وهمت مرجانة أن تتحدث ذات يوم إلى ابنها في بعض ذلك ، فقال لها متصاحكاً : « ما نحن وذاك ! إن المال أقوى قوة ، وأعظم بأساً ، وأوسع سلطاناً ، وأشد إغراء من الحب ؛ وما ينبغي للفقراء أن يحبوا . » وهمت أن تمضي في حديثها فكفها عن ذلك بإغراقه في ضحك طويل ، وبانتقاله إلى أحاديث الحقل والعاملين فيه ، وإلى أحاديث الدائرة وموظفيها ، حتى قال أبوه الشيخ : « دعى هذا الفتى ؛ فإنه لم يخلق لفرح ولا لحزن ، كما لم يخلق لجد ولا لعمل . » وسمع الفتى مقالة أبيه ، فازداد إغراقاً في الضحك ، ثم انصرف عن الدار كأنه مجنون . وكان من وراء هذا الجنون مع ذلك خاطر قد طوى عليه نفسه طيباً ، وهو أن المال أقوى من الحب . ولكن الطريق بينه وبين الحب قريبة كل القرب ، ممهدة كل التمهيد ؛ فليس بينه وبين صفاء إلا جدار واحد يفصل بينهما ؛ فإذا ارتقى إلى سقف الدار ، فليس بينه وبين صفاء جدار ولا ستار ولا حائل رقيق أو صفيق ؛ فالأسوار بينه وبين الخطبة ، والأسوار بينه وبين الزواج ، كثيفة منيعة لا سبيل إلى اقتحامها ولا إلى النفوذ منها ؛ ومتى استطاع الفقير المعدم أن يتغذى من أسوار المال والثراء ! ولكن الأسوار بينه وبين الحب لا وجود لها ، وإنما هي حيلة واسعة أولاً ، وجراءة جريئة ثانياً ، وصبر للنفس على ما تكره بعد ذلك . وقد جعل هذا الخاطر يتردد في ضمير الفتى يقظان ، ويتردد في

أحلامه ناعماً ؛ والفنى يملك أمره ويضبط نفسه ويمسك لسانه ، فلا يظهر شيئاً ولا يقول شيئاً ولا يخلى بين الناس وبين ما أخفى في ضميره من هذا السر المكتوم . ولم تكن حال صفاء خيراً من حاله ، ولكنها كانت أدنى منه إلى الصراحة ، وأسرع منه إلى الإذعان . لم تكن نفسها عسيرة ولا مقعدة ، ولم يكن لها حظ من مهارة أو مكر ، وإنما كانت ساذجة غافلة لا تحسن حقداً ولا كيداً ولا استخفاء ؛ وهى من أجل ذلك لم تنطو على نفسها ولم تستخف بما فى ضميرها ، وإنما أذعنت خاضعة لإرادة ناثرة القلب كما قلت ؛ فلما اشتد عليها الإلحاح وكثر حوّلها الإغراء ، وجعلت ألوان الطرف وفنون الهدايا تستبق إلى الدار ، رضيت بنصف نفسها ومخطت بنصفها الآخر ؛ فكانت تمنح الخطبة والزواج ابتسامة ظاهراً ورضاً يكاد يشرق له وجهها أحياناً ، وكانت تمنح الحب حزناً دخيلاً وأملاً دفيناً ، ودموعاً لعلها أن تنهل حين تخلو إلى نفسها فى ساعة من ساعات النهار أو فى ساعة من ساعات الليل ؛ وهى بعد لم تر خطبها ولم تسمع له ، وإنما رأت آثاره ، وسمعت ما كان يروى عنه من الأحاديث ؛ فكان خطبها ظلاً يرسل الطرف والهدايا والزينة ، ويتحدث الناس عنه بما يشاءون ؛ وكان حبها شخصاً رأت من قرب ، واستمعت له وتحدثت إليه ، وتمثلته فى نفسها ، واستحضرت فى ضميرها ؛ وقد جعلت منذ حين لا تراه إلا محالسة ، ولكنها تراه

على كل حال ، وهي تستطيع إن شاءت أن تبتغي الوسائل للقائه ، ولو فعلت لأتبع لها هذا اللقاء ، ولو فعلت لاستأنفت التحدث إليه والاستماع له ، ولتعمته من حديثها ونظراتها بما كانت تتمتع به من قبل ، ولاستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل . خواطر تردد في نفس الفتاة ، وهي مشبهة شبيهاً قوياً أو ضعيفاً لخواطر تردد في نفس الفتى ، وربما خطر لصفاء أن لو كان جاراها ميسر الحال موفور الكسب لما استطاع أحد أن يصدّها عنه أو يردها عن حبه ، ولكنه خامل خامد لا يكسب ما يقيم أوده وأود أبويه ؛ فما اجتماع الفقر إلى الفقر ، وما اقتران البؤس إلى البؤس ، وما التباس الإعدام بالإعدام ! أتحقّ إذن أن الحب لم يخلق للفقر ، وأن الفقراء لم يخلقوا ليحبوا ، وإنما خلقوا ليكنوا ويمجدوا ويعملوا ويكسبوا القوت ، فإن بلغوا من ذلك ما يريدون فهو خير لهم ، وإن لم يبلغوه فإن في الشقاء لهم سعة ، وفي الموت لهم راحة وروحاً ؟

وكذلك كانت نفس الفتاة تضطرب بمثل ما كانت تضطرب به نفس الفتى من الألم والحزن واليأس ، وكان قلب الفتاة يجرد ما كان قلب الفتى يجرد من اللوعة والحسرة والأسى ؛ وكان أحب شيء إليها أن تفضي إلى الفتى بذات نفسها ، وأحب شيء إلى الفتى أن يفضي إليها بذات نفسه ؛ ولم يكن إلى ذلك سبيل بمشهد من الناس أو على غيب منهم ؛ فقد حيل بينهما وبين

اللقاء ، وليس يفصل بينهما مع ذلك إلا حائط واحد رقيق ، ولو قد صعد كلاهما إلى سقف داره مخالسة لاتباع لها اللقاء والحديث .

والأيام تَمْضِي على ذلك وتتبعها الليالي ، فازداد المعلم يونان اتصالاً بعصبته ولزوماً لها ، وازدادت مرجانة تطويقاً في الأرض بقصعتها تلك التي تغطيها الأعشاب ، ومضى القى في حياته الكسلة العاملة ويقظته الغافلة الذاهلة ، وانصل النشاط واشتدت الحركة في دار صفاء ، وأحس الناس أن يوم الزواج يدنو قليلاً قليلاً . وقد أطل هذا اليوم واستقبلته صفاء باسمه الثغر ، عابسة النفس ، تظهر الرضا وتضممر السخط ؛ وأقبل القسس مع المساء على دار فرحة مبتهجة قد امتلأت بقوم فرحين مبتهجين . وقد أحيا القسس مراسيمهم فرتلوا وكللوا وقرعوا الأجراس والتواقيس ، وعقدوا تلك العقدة التي لا يفصمها إلا الموت . وكان المعلم يونان مستلقياً على مصطبة في الجانب الأيمن من داره ، وكانت مرجانة قد جلست منه غير بعيدة واجهة ساهمة ، تجري على وجهها دموع صامتة ، يقول المعلم : « أين ابنك يا مرجانه ؟ » فتقول مرجانة بصوت مبتل : « لعلك كنت تريد أن يشارك في هذا الفرح ! »

فيعود الشيخ إلى صمته ، وتمضي الشيخة في وجومها الباكي أو بكائها الواجم . ولم تشعل في دار مرجانة لذلك اليوم نار ، ولم تر دار مرجانة في تلك الليلة نوراً ، وإنما كانت النار ذاكية والنور متألّفاً في دار حنيئة . ويتقدم الليل حتى يبلغ نصفه ، ثم

يتقدم حتى يوشك أن يبلغ ثلثيه ، والمحتفلون في فرحهم ومرحهم ،
 قد أخذوا يتشوفون ويتشوقون إلى مثل ما تعودوا أن يشهدوا في تلك
 الليالي ، ولكنهم ينصرفون لم يروا شيئاً ، ولم يسمعوا شيئاً ، وقد
 شملهم فتور غريب بغض . وترى أعقاب الليل المنهزم فتى
 ينسل من دار حنينة مستخفياً فيما بقى من ظلام ، ويسفر الصبح
 شاحباً كثيباً ، وتشرق الشمس بنور ربها ، ولكنها ترسل على ذلك
 الشعاع أشعة فاترة خائرة متهالكة ، لا تكاد تخرجه من سكونه
 إلى الحركة ، ولا تكاد تخرج أهله من صمتهم إلى الكلام ؛
 وهؤلاء نفر من الناس قد أقبلوا يسايرون شاطئ القناة ، حتى
 إذا بلغوا المنحدر هبطوا إلى دار مرجانة فأدخلوا فيها جثة قد
 احتز القطار رأسها احتزازاً ؛ ويرتفع صوت مرجانة مولولاً ، فلا
 يكاد يتجاوز دارها حتى يجيبه من دار حنينة صوت آخر مواصل
 قد ارتفع بالإعوال . ويعلم الناس قبل أن ينتصف النهار أن
 الفتى قد نام ينتظر الموت حتى جاءه به قطار الصعيد ، وأن
 صفاء قد أصبحت مزوجة كالمطلقة ، فقصمت تلك العقدة
 التي عقدها القسس والتي لا يفصمها إلا الموت .

تقول حنينة في نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف المال ! » وتقول
 مرجانة في نحيبها : « يا ليتنا لم نعرف الحب . » ويقول المعلم
 يونان في صوته الهادئ المتقطع : « قد عرفنا الموت الذي هو
 أقوى قوة من المال والحب جميعاً » .

٧-٧

خطر

لست أبغض شيئاً كما أبغض إلقاء الدروس في الوعظ والإرشاد وتنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وتحذير الذين لا يفنى فيهم التحذير ولا النذير ، وأنا مع ذلك مضطر إلى هذا أشد الاضطرار ، أراه واجباً تفرضه الوطنية الصادقة ، وتفرضه الكرامة الإنسانية ، ويفرضه الحرص على ألا تتعرض مصر للأخطار العنيفة قبل إبانها ، وعلى أن يسلك هذا الوطن البائس طريقه إلى التطور في أناة ورفق وهدوء ، لاتعصف به العواصف ، ولا يجرى عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التي لا تبقى على شيء .

وقد يذعر القارئ حين يقرأ هذا الكلام ، وكم أتمنى أن يكون دعره صادقاً يبلغ القلب ، ويصل إلى أعماق الضمير ، ويدفع إلى العمل الذي يعصم مصر من هذه الأهوال التي تنتظرها في طريقها إلى التطور والرقى .

موظف من موظفي السلوة ، ليس بالعامل الذي يحسب له أجره مياومة ، وإنما هو من الموظفين الدائمين — أو المشبتين — كما يقول الحكوميون . هذا الموظف في الدرجة السابعة ، يبلغ

مرتبه اثني عشر جنياً أو أقل من ذلك قليلاً ، له زوجة وخمسة من الولد ، وقصت عليه ظروف الحياة أن يعول بني أخته وهم ستة ، وأن يعول عمه له تقطعت بها أسباب الرزق ، فهم إذن أربعة عشر شخصاً ، يعيشون أو يراد منهم أن يعيشوا على هذا المرتب الضئيل . والعيش طعام وشراب ولباس ، والتجاء إلى دار يظلمهم سقفها ، وتحميم جلوانها من أن تأخذهم الشرطة ، كما تأخذ المتشردين . وطبعي ألا ينهض هذا المرتب الضئيل بحاجة هذه الأسرة الضخمة ، فيكون الاقتراض ، ثم يكون العجز عن أداء الدين ، ثم يكون امتناع القادرين عن الاقتراض ما داموا لا يستردون ما يقترضون ، ثم يكون الحرمان ، لا أقول من طيبات الحياة ، فليس لمثل هذه الأسرة أمل في طيبات الحياة ، وإنما أقول مما يقيم الأود ويرد ألم الجوع . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الثياب التي تنقو حر الصيف ويرد الشتاء ، فليس لهذه الأسرة في هذه الثياب أمل ، وإنما أقول من الثياب التي تستر ما يجب أن يُستر من الأجسام . ثم يكون الحرمان ، لا أقول من الفرش الوثيرة ، فليس لهذه الأسرة في الفرش الوثيرة أمل ، وإنما أقول من الحصار الذي يحول بين أجسامها وبين الأرض ، ومن الغطاء الذي يحيل إليها أنها تحاول أن تنقو به البرد . ثم يكون الضيق بالحياة ، ثم يكون الالتجاء إلى الأغنياء بطلب المعونة ، ثم يكون إعراض

الأغنياء عن هؤلاء اللاجئين البائسين ، إما لأن قلوب الأغنياء قاسية ، وإما لأن هؤلاء اللاجئين ليسوا وحدهم طلاب العون وإنما لهم شركاء في الالتجاء والتماس البر ، وإما لأن الأغنياء يرون أن من الحق عليهم أن يحسنوا ولكنهم يرون أن من الحق أن ينظم الإحسان حتى لا ينتشر الأمر ، وحتى لا يلجأ إليهم البائس ومتكلف البؤس ، وحتى لا يتخذ التسول صناعة وحرقة ، وحتى لا يتخذ البر وسيلة إلى طمع الناس فيما ليس في أيديهم من سرالموسرين ؛ وإما لهذه العلل كلها مجتمعة ولعلل أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إليها وليس في إحصائها نفع لأحد .

ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن هذا الموظف من موظفي الدولة عاجز عن أن يجد في مرتبه الضميل ما يرضى أبسر ما تحتاج إليه أسرته لتعيش ، فهو يستدين من جهة حتى لا يجد إلى الاستدانة سبيلا ، وهو يلتمس الإحسان من كل طريق فلا يظفر بما يلتمس من الإحسان ، فليس أمامه إلا أن يقترف الإثم ليعيش ويتبع لأسرته أن تعيش ؛ وقد يمنعه خلقه ودينه من اقتراف الإثم ، وقد تكون الحاجة إلى الغذاء والكساء أقوى من خلقه ودينه ، فيقترف الإثم ، ولكن القانون له بالمرصاد ، فهو إن فعل تعرض للعقوبة ، وتعرضت أسرته لبؤس تضاعفه الظروف أضعافاً ؛ وإذن فليصبر ، ولكن الصبر لا يطعم الجائع ، ولا يكسو العارى ، ولا يسكت الصبي

الذى يصبح ملتصقاً طعامه حين يعضه الجوع ، ولا يداوى المريض ، ولا يغنى عن الدين انتهوا إلى الدرك الأسفل من الحرمان شيئاً .

والشيء الذى ليس فيه شك ، أن هذا الموظف ليس وحيداً فى بؤسه هذا المنكر ، وفى عبثه هذا الثقيل ، وإنما له نظراء لا يحصون بالعشرات ولا بالمئات ، وإنما يحصون بالآلوف وأخشى أن يحصوا بعشرات الآلوف ، وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالاستدانة والعجز عن أداء الدين أو الالتواء بالدين ، وليس من الممكن أن تحل مشكلات هؤلاء الناس بالتصدق والإحسان ، فإن التصديق والإحسان قد يعينان على تفريغ أزمة عارضة ، وعلى إطعام العيال يوماً أو أياماً ، وعلى كسوة العيال فى فصل من القصول ، ولكنهما لن يستطيعا أن يكفلا هؤلاء الناس حياة يأمنون فيها من البؤس والجوع .

وأنا لم أذكر إلى الآن حق هؤلاء الصبية فى أن يتعلموا ، وفى أن يستمتعوا بصحة لا تجعلهم عرضة للأدواء المهلكة والأمراض المعدية ، ولا تجعلهم مصدر خطر على من يتصل بهم من الناس .

هذه مشكلة لو كانت طارئة لظننت أن الحديث عنها قد يلفت إليها ويدعو إلى التفكير فيها والاجتهاد فى حلها ،

ولكنها لم تطراً اليوم ، ولم تطراً أمس ، وإنما عهدهابنا بعيد ، وإهمالنا لها متصل ، وهي من أجل ذلك تنتج نتائجها المنكرة الحزينة ؛ فانتشار الوباء في غير مشقة ، وانتشار الفساد الخلقى ، وانتشار الرشوة ، وانتشار السرقة ، وتقطيع الصلات بين الناس ، وانتشار الظلمة في الضمائر والقلوب ، وانتشار اليأس حتى من روح الله ، وانتشار الذلة والمسكنة والهوان ، وانتشار الإذعان للظلم والاستسلام للعسف والانقياد للاستبداد بالحرية والكرامة ، والازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنساناً ، فضلاء عن الازدراء لكل ما يجعل الإنسان إنساناً متحضرأً ممتازاً — كل هذه الآفات والحازي ليس لها مصدر إلا هذا الشقاء .

ولأعد إلى هذا الموظف من موظفي الدولة ؛ إنه كغيره من الموظفين : يقدو إلى مكتبه مع الصباح ، ويروح إلى داره مع المساء ، قد اتخذ ثياباً تلائم عمله ، ولو بليت ثيابه فلم يجد ما يشتري به ثياباً أخرى لعوقب على ذلك ، فالدولة حريصة على أن يكون موظفوها كراماً في مظاهرهم على أقل تقدير . هو إذن يقدو ويروح في ثيابه تلك الملائمة ، وعلى رأسه طربوشه ، وفي رجله حذاءه الذي لا ينبغي أن يبلى ، وهو يستقبل أصحاب الحاجات من الشعب ، يسم لهم أو يعبس في وجوههم ، يخدمهم ناصحاً أو يخدمهم متكرهاً ، وهو يتحدث إلى زملائه فيبذلهم الدعابة حيناً ويبادلهم الشكوى

أحياناً ، وهو على كل حال قبر متحرك ، يحيا حياة ظاهرة ولكن قلبه ميت ، قد أماته البؤس والشقاء والمهم ، وأكثر زملائه يشبهونه ؛ فأعجب للدولة يخدمها موظفون تحيا أجسامهم وتموت نفوسهم ، وانتظر بعد ذلك من هذه المولة أن تسلك بالشعب طريقه إلى العزة والكرامة والاستقلال الناقص أو التام ، والمهم هو أننا عشنا حتى رأينا موظفى الدولة يطلبون الصدقة ويلتمسون الإحسان : يطلبون ذلك بالسنتهم ويطلبون ذلك بأقلامهم . جاهدوا ما وسعهم الجهاد حتى أرغمتهم الحاجة على أن يتخففوا من هذه الكرامة التى منحها الله للإنسان ، والتى تمنع الإنسان من أن يسأل ويلتمس الإحسان !

موظفو المولة إذن يطلبون الصدقة ويلتمسون الإحسان ؛ وأغرب ما فى الأمر أن عامة الشعب يحسدون الموظفين على مرتباتهم هذه المقررة المنظمة التى تصرف لهم فى أول الشهر ، لا تتخلف عنهم ولا تبطل عليهم ؛ وإذا كانت هذه حال المحسودين فكيف تكون حال الحاسدين ؟ أظن أنك قد رأيت الخطر الذى يسعى إلينا مسرعاً ، أو الذى نسعى إليه مسرعين ، وأظنك توافقنى على أننا بين اثنتين : إما أن نترك الأمور تجرى على سجيئها فيكون ما لا بد أن يكون ، ويمجرى علينا ما جرى على الأمم من قبلنا ، وإما أن نستقبل من أمرنا ما استدبرنا ، وأن نحاول الإصلاح لنعصم موظفى الدولة من

طلب الصدقة والتماس الإحسان ، فنعصم الشعب كله من طلب الصدقة والتماس الإحسان ؛ وليس إلى ذلك إلا سبيل واحدة ، هي أن نعيد النظر في نظامنا الاجتماعي كله ، فيما تجبى الدولة من الضرائب ، وفيما تمنح الدولة من المرتبات .

الضرائب قليلة جداً ، أقل مما ينبغي ، والمرتبات قليلة جداً ، أقل مما ينبغي ؛ والعدل يقتضى أن تضاعف الضرائب ، وأن تضاعف المرتبات ، وأن تكف الدولة عن الإسراف في الأموال العامة ، وأن يكف الأغنياء عن الإسراف في أموالهم الخاصة . وليس إلى الإصلاح الاجتماعي من سبيل إلا إذا وجدت الأداة السياسية الصالحة التي تستطيع أن تهض بعثته وتنقذه من مشكلاته ؛ فهل ترى أن مصر تملك في هذه الأيام أداة سياسية صالحة تمكنها من محاولة هذا الإصلاح ؟ هذا سؤال لست في حاجة إلى أن أجيب عليه !

٨-٨

تضامن

لم يكن عمر بن الخطاب رحمه الله ، يقدر حين صدر بالمسلمين من الحج سنة ثمانى عشرة للهجرة ، أنه يستقبل بالمسلمين من أهل بلاد العرب ، ومن أهل الحجاز ونجد

وتهمامة خاصة ، عاماً أسود قائماً يمتحن المسلمون به في أنفسهم وأموالهم وأخلاقهم ، وفيما أتيح لهم من الصبر على الشدائد والثبات للمكروه والنفوذ من الخطوب ، وفيما أتيح لهم كذلك من هذا الشعور الكريم الممتاز الذي يجعل الإنسان إنساناً ويرقى به إلى المتزلة العليا من منازل الكرامة ، وهو شعور التعاطف والتآلف ، والتضامن الاجتماعي الذي يلتقي في روع كل فرد مهما تكن منزلته ، أنه عضو من جماعة يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقتها ، ويأخذ بحظه مما يصيبها من النعماء والبأساء ، وما ينوبها من السراء والضراء .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر أن الغيب قد أضمر له وللمسلمين من أهل بلاد العرب هذه المحنة القاسية ، يحصن بها قلوبهم ، ويصنق بها نفوسهم ، ويعلمهم بها أن الحياة ليست نعيماً متصلاً ، ولا رضاء مقيماً ، ولا خصباً يتجدد كلما تجددت الفصول ؛ وإنما هي مزاج من النعيم والبؤس ، ومن اللذة والألم ، ومن السعادة والشقاء ؛ وأن سبيل المؤمن الذي مس الإيمان قلبه حقاً ، هو ألا يطغى إذا استغنى ، ولا يبطر إذا نعم ، ولا ييأس إذا امتحن بالبؤس والشقاء ؛ وألا يؤثر نفسه بالخير إن أتيح له الخير من دون الناس ، وألا يترك نظراؤه نهياً للنوازل حين تنزل ، وللخطوب حين تلم ، وإنما يعطى الناس مما عنده حتى يشاركوه في نعمائه ، ويأخذ من الناس

بعض ما عندهم حتى يشاركهم في بأسائهم ؛ فالله لم ينشر ضوء الشمس ليستمتع به فريق من الناس دون فريق ، والله لم يرسل النسيم لتتنفسه طائفة من الناس دون طائفة ، والله لم يُبخر الأنهار ولم يفجر الينابيع لتشرب منها جماعات من الناس وتظلم إليها جماعات أخرى ، والله كذلك لم يخرج النبات من الأرض ليشبع منه قوم ويحوج آخرون .

ولأنما أسبغ الله نعمته ليستمتع بها الناس جميعاً ، تتفاوت حظوظهم من هذا الاستمتاع ، ولكن لا ينبغي أن يفرض الحرمان على أحد منهم ، مهما يكن شخصه ، ومهما تكن طبقته ، ومهما تكن منزلته بين مواطنيه .

لم يكن عمر رحمه الله يقدر حين صدر من الموسم في ذلك العام أن الله سيرسل إلى المسلمين عاماً جديداً يمتحنهم فيه بالجوع والظلم والعري امتحاناً لم يعرفوا مثله منذ عهد بعيد أشد البعد ؛ وكيف كان عمر يستطيع أن يقدر ذلك وأمور الدولة الناشئة تجري على خير ما كان المسلمون يحبون من العدل والسعة وبعده الصبب ، وانتشار الفتوح وكثرة النىء وغزارة الرخاء ؟ ولكن العام الجديد يقبل ، وإذا السماء تبخل بمائها حتى تحترق الأرض ظمأ إلى هذا الماء ، وحتى تسود كأنها الرماد ، وحتى يضطر المسلمون إلى أن يسموا هذا العام عام الرمادة . بخلت السماء بالماء ، وجادت الشمس بالحر ، وعجزت الأرض عن

أن تخرج للناس ما يأكلون وما يطعمون به ما كانوا يسومون من الناغية والراغية . وينظر عمر بعد أن استقر في المدينة ، فإذا الأزمة تسعى متمهلة مستأنية ، ولكنها مستوثقة من نفسها ملحة في سعيها ، وإذا أهل البادية قد أجدبوا واشتد عليهم الجذب فلم يفكروا إلا في أن يهرعوا إلى خليفتهم ، يلتصقون عنده ما يطعمهم من جوع ، ويسقيهم من ظمأ ، ويكسيهم من عرى ؛ وما له لا يفعل ذلك وهو قد أخذ أبناءهم وآباءهم وإخوانهم وكاسيهم وعائليهم ، فرى بهم تلك الثغور ، ودفع بهم إلى حروب يعرفون أولها ولا يعرفون آخرها ! وما لهم لا يهرعون إليه وهم كانوا يشعرون بحبه لهم ، وعطفه عليهم ، وبره بهم ؛ يسعى إلى أقصاهم كما يسعى إلى أدناهم ، لا يقصر عن السعى إليهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار . ثم ينظر عمر فإذا جزيرة العرب كلها ترسل إليه من بقى فيها من الشيوخ والنساء والأطفال والعاجزين الذين لا يقدرון على شيء ، والقادرين الذين لا يجدون شيئاً يقدرون عليه . . . هنالك ينهض عمر للقاء هذه الأزمة العنيفة الجائحة نهوض الرجل الذى يعرف الحق كما لم يعرفه أحد بعده ، ويحمل العبء كما لم يحمله أحد بعده ، ويواجه الخطب مصمماً على أن ينفذ منه أو يموت من دونه مهما تكن الظروف ، حتى أصبح عام الرمادة ذاك كترأ من كنوز المسلمين لا ينفد ولا يتركه الفناء : يجدد المسلمون

فيه من العبرة والموعظة الحسنة والقذوة الصالحة ، ما لا يمتنع عليه قلب له حظ من رفق ولين ، إلا أن يكون من تلك القلوب التي وصفها الله عز وجل ، بأنها قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وقد بدأ عمر رحمه الله بنفسه في مقاومة هذا الخطب ، فأبى إلا أن يكون رجلاً من المسلمين : يشقى كما يشقون ، ويجوع كما يجوعون ، ويظماً كما يظماًون ، ويشتد على نفسه وعلى أهله بمقدار ما تشتد الأزمة على أشد الناس فقراً وبؤساً ؛ يفعل ذلك لأنه مؤمن قبل كل شيء بأن من الحق عليه لنفسه ولله وللناس أن يفعل ذلك ، ثم يفعله لأنه مؤمن بأن من الحق عليه أن يعلم الناس كيف يكون التضامن والتعاون والتعاطف ، حين تنزل المحن وتلم الخطوب ، فيأبى إلا أن يعيش كما يعيش أفقر الناس !

رأى المسلمين لا يجدون السمن إلا في مشقة وجهه ، فحرم على نفسه السمن حتى تجده عامة الناس ، وفرض على نفسه الزيت والخبز الجاف ؛ فلما ثقل عليه الزيت ظن أنه إن طبخ له فقد يكون أخف على معدته احتمالاً ، فأمر أن يطبخ له بالزيت ، وأكله مطبوخاً فكان أوجع له وأعسر هضماً ، حتى تغير لونه واسود وجهه ، وكان شديد البياض ؛ ثم جعل يطعم الناس على الموائد العامة ويجلس معهم إلى هذه الموائد يأكل مما يأكلون منه . ثم أمر المنادين أن ينادوا في

الناس : من يشاء أن يقبل على هذه الموائد ليأكل منها فليفعل ، ومن شاء أن يقبل على هذا الطعام فيأخذ منه حاجته وحاجة أهله ليأكل معهم فليفعل ! وكان يشرف بنفسه على إعداد الطعام ، وربما علم الأطباء كيف يطبخون . ولكن الأزمة تشتد وتشتد ، وأهل البادية يهرعون إلى المدينة ، وكثير منهم لا يستطيعون أن ينتقلوا من أماكنهم ، قد هلك الزرع ، وجف الصرع ، ونفقت الماشية ، وأصبح من الحق على الخليفة أن يترك هؤلاء الناس في مواطنهم ، ويحمل إليهم أرزاقهم ما داموا عاجزين عن السعي إلى هذه الأرزاق ؛ هنالك يكتب عمر إلى عماله في الأقاليم يأمرهم بأن يرسلوا إليه الأمداد . وأقرأ هذا الكتاب القصير الرائع الذي كتبه عمر إلى عامله على مصر عمرو بن العاص رحمه الله ، وانظر إلى ما في هذا الكتاب القصير الرائع من عنف عنيف ملؤه الرحمة الرحيمة ، والرفق الذي ليس بعده رفق : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي . سلام عليك . أما بعد أفتراى هالكاً ومن قبلي ، وتعيش أنت ومن قبلك؟ فبا غوثاه ... يا غوثاه ... يا غوثاه ! »

فلم يكده عمرو بن العاص رحمه الله يقرأ هذا الكتاب الذي يزجره فيه أمير المؤمنين أشد الزجر ، حتى كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عمر أمير المؤمنين من

عمرو بن العاص . سلام عليك ، فلانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد أذاك الغوث فلبث فلبث ؛ لأبعث إليك بعير أولها عندهك وآخرها عندى . »

ثم نهض عمرو فى إرسال هذا الغوث برّاً وبحراً . وكتب عمر إلى عماله الآخرين فى الشام والعراق ، فكلهم صنع صنع عامل مصر ، ثم أرسل عمر رسله إلى حدود بلاد العرب مما إلى الشام والعراق ومصر ، وأمرهم أن يتلقوا هذه المعونات ، فيميلوا بها إلى أهل البادية فى أماكنهم وأحيائهم ليطعموهم ، ويكسوهم ، ويسقوهم ، وعزم على رسله هؤلاء ألا يضعفوا ولا يلبثوا ولا يفرقوا ما فى أيديهم من الطعام دون أن يتبينوا أنه صائر إلى بطون الجائعين ، لا إلى خزائن المختزين ؛ وأشد من هذا روعة وأعظم من هذا إثارة للعبرة ، أن عمر رحمه الله كان يقول : « نطعم ما وجدنا أن نطعم ، فإن أعوزنا جعلنا مع أهل كل بيت من يجد ، عدتهم ممن لا يجد ، إلى أن يأتى الله بالحيا . »

ومعنى ذلك أنه رحمه الله قد فتح بيت المال على مصراعيه ، وأزمع أن يرزق الناس منه ؛ حتى إذا لم يجد فيه شيئاً كلف كل أسرة غنية أن تطعم مثل عددها من الفقراء ، يأخذهم بذلك بسلطان القانون والدين ، حتى يأتى الله بالفرج .

وما قصصت عليك هذا كله لأرفه عليك بروائع التاريخ ، أو لأطرفك بهذه النوادر البارة من سيرة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب ؛ فلسنا في وقت ترفيه ولا إطراف ولا ترويح ،
ولما نحن نحيا في أيام سود ، ليست أقل نكراً . ولعلها أن
تكون أشد نكراً ، من عام الرمادة ذاك .

فقد كان المسلمون في أيام عمر ، وفي ذلك العام ، يجحدون
الجوع والظمأ والعري ؛ فأما المصريون في هذا العام فإنهم
يجحدون الموت ويجحدون المرض ، ويجحدون بعد الموت والمرض
ما كان يجد العرب في عام الرمادة من الجوع والظمأ والعري ؛
ومن حق المصريين الذين صب عليهم الوباء أن يدفع عنهم
هذا الوباء ، وأن ترد عنهم آثاره ؛ فلا يكون منهم من يشكو
الجوع والظمأ والعري ؛ وهذا الحق واجب على الدولة ما وجدت
في خزائنها من المال ما يمكنها من ذلك ، لا ينبغي أن تفكر
في شيء حتى تفرغ من هذه المحنة ؛ فإن لم تسعفها خزائنها
فمن الحق عليها أن تسلك الطريق التي أراد عمر أن يسلكها ،
وأن تفرض على القادرين رعاية العاجزين حتى يأتي الله بالفرج .
يجب أن تعلم الدولة ، ويجب أن يعلم الموسرون ، أن التصديق
بالمال خير في أوقات الرخاء والدعة واللين ؛ فإذا اشتدت الشدة
وأزمت الأزمة وألم الوباء ، فالتصدق واجب يفرضه العدل ؛
فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم ، وجب على الدولة
أن تأخذهم به أخذاً . يجب على الدولة أن تعلم أن الله قد أمر
أئمة المسلمين في أوقات الرخاء والدعة أن يأخذوا من الأغنياء

ويردوا على الفقراء حتى لا يبقى بين الناس جائع او محروم ؛
 فإذا جدد الجدد وأملت الكارثة ، فحرام على الموسرين أن يطعموا
 وأن يشربوا وأن يكتسوا حتى يطعم الجائعون ويشرب الظالمون
 ويكتسى العارون من المعسرين ؛ وعلى الدولة أن تقوم على
 هذا كله بسلطان القانون ؛ فإن لم تفعل فهي آثمة أشنع الإثم
 في ذات الله ، وفي ذات الوطن ، وفي ذات المواطنين !
 هذه دروس ألقاها عمر بن الخطاب على الحاكمين
 والمحكومين في التضامن الاجتماعي الذي لا يقوم على الاشتراكية
 ولا على الشيوعية ، وإنما يقوم على قول الله عز وجل :
 « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى
 عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . »
 فهل نطمع في أن تسمع الدولة ، وفي أن يسمع الموسرون ؟
 وهل نطمع في أن تتذكر الدولة ويتذكر الموسرون ؟ وهل نطمع
 في أن نغنى ونغنى الكرامة الإنسانية من طلب الصدقات في
 الصحف إلى قوم يؤثرون الأموال على الوطن وعلى المواطنين ؟
 إن من الحق على الدولة أن تعلم بالخلاء كيف يكون
 الكرم والحدود بسلطان القانون ؛ إذ لم يصدر عن بقطة الضمائر
 بحياة النفوس . . .

٩-٩

ثقل الغنى

كان عبد الرحمن بن عوف رحمه الله كثير المال عريض الثراء في جاهليته ، وقد أسرع إلى الإسلام حين ظهرت الدعوة إليه فيمن أسرع إليه من السابقين الأولين ، لم يبطره الغنى ولم يصرف الثراء قلبه عن الخير ، ولم يخف كما خاف الأغنياء المترفون من قريش ما كان الإسلام يدعو إليه من التسوية بين الأغنياء والفقراء وبين الأقوياء والضعفاء وبين الأحرار والعبيد ، وإنما شرح الله صدره للإسلام ، فأقبل عليه مشغولاً به مضحياً في سبيله بما جمع من مال وما ضم من ثروة وما اكتسب من سودد ، مستعداً لمشاركة أصحابه في التعرض للأذى واحتمال المكروه ، ولم يتردد كما لم يتردد غيره من أصحابه حين اشتدت المحنة وثقلت الفتنة وعظم البلاء في أن يفر بدينه إلى حيث يأمن على رأيه وعقيدته وعبادته لربه ، تاركاً وراءه ماله الكثير وثراه العريض ومكانه الرفيع ، وقوماً من أهله وذوى قرابته كان يحبهم أشد الحب ويعطف عليهم أرق العطف ويمنحهم صفو ما كان يفيض به قلبه من الرفق والبر والحنان ، فهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً ،

ثم هاجر إلى المدينة حين اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام داراً ، فأنهى إليها وهو لا يملك إلا قلبه الذكي وضميره النقي وأنفه الحمى وإيمانه الذي ملأ نفسه ثقة و يقيناً ؛ وقد آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين رجل من أغنياء الأنصار هو سعد بن الربيع الخزرجي رحمه الله ، فقال له سعد : انظر إلى مالي وخذ نصفه ، ولي زوجتان أطلق لك أيتهما أعجب إليك فتتخذها لنفسك زوجاً ! قال عبد الرحمن : بارك الله لك ، ولكن إذا أصبحت فدلّوني على سوقكم . فلما أصبح ذهب إلى السوق فأنفق فيها وجه النهار ، ثم عاد وقد باع واشترى واكتسب ما يقيم به الأود ثم أقبل بعد حين على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وقد لبس الحديد واتخذ من الزينة ما كان يباح للمسلمين في ذلك الوقت . فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك أنبأه بأنه قد اتخذ لنفسه زوجاً من نساء المدينة ، ويأنه قد أمهر زوجته وزن نواة من ذهب ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يولم لأصحابه ، ففعل . ولم تمض أعوام حتى كان عبد الرحمن بن عوف من أغنياء المدينة قد اكتسب ثروة مكان ثروة ، وكثر ماله مكان مال ، واستطاع أن يتزوج فيمهر امرأته ثلاثين ألفاً ؛ وكان يقول : لقد رأيتني وما أرفع حجراً إلا ظننت أني سأجد تحته ذهباً أو فضة !

كان عبد الرحمن إذن من كبار الأغنياء قبل أن تفتح مكة ، فلما تم فتح مكة ضم إلى ثرائه الجليلد ثراه التليلد ، ثم استثمر هذا كله كأحسن ما يستثمر المال ، وكأحسن ما كانت قریش تستثمر المال ، حتى أصبح ذات يوم ولأنه لمن أغنياء العرب كافة ، ولعله أن يكون أغناهم كافة ، لا يستثنى منهم إلا عثمان بن عفان رحمه الله . وربما كان من الممكن أن يقال إن عبد الرحمن بن عوف كان أغنى من بيت مال المسلمين ؛ أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن بيت المال في ذلك الوقت يدخر شيئاً ، ولم تكن تجبى إليه الضرائب ، ولم يكن يحمل إليه فيء ذو خطر ، وإنما كانت تصابب الغنائم اليسيرة في الغزوات فتقسم بين الغزاة ويحفظ خمسها للمرافق العامة ولوجوه الإحسان والبر . وكانت الصلقات تؤخذ من الأغنياء فتقسم بين الفقراء ولا يصل منها إلى المدينة إلا أقلها ، فإذا وصل حبس على المصارف التي بينها الله في القرآن الكريم ؛ فكان بيت المال فقيراً . وليس أدل على فقر بيت المال من إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم على الأغنياء من الناس في أن يعينوه على بعض غزواته بأموالهم : يخرجون له عن بعض فضولها أو ينزلون له عن بعض أصولها .

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يكره شيئاً كما كان يكره اجتماع المال . ولم يكن يشفق على نفسه وعلى أصحابه من شيء

كما كان يشفق على نفسه وعلى أصحابه من اجتماع المال وتضخم الثراء ؛ فنظر ذات يوم إلى عبده الرحمن وقال له : « يا ابن عوف ، إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً ؛ فأقرض الله يطلق لك قدميك . » قال عبده الرحمن بن عوف : « وما الذى أقرض الله يا رسول الله ؟ » قال : « تبدأ بما أمسيت فيه . » قال : « أبكته أجمع يا رسول الله ؟ » قال : « نعم ! » فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك ، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليصف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ويبدأ بمن يعول ؛ فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه .

وأحب قبل كل شيء أن يقف القارئ معى عند ما فى هذا الحديث من سداجة رائعة أو روعة سادجة فى لفظه وفى معناه وفى قصته كلها ، فرسول الله يشفق على عبده الرحمن من غناه الواسع وماله الكثير ، ويصور هذه الثروة ثقيلة باهظة يحملها صاحبها على كاهله فتمنعه من السعى وتعسر عليه الحركة ، حتى كأنه مقيد لا يستطيع أن يمشى إلى الجنة مع الساعين أو يعدو إليها مع العادين . وهو لا يشير عليه بأن يتخفف من هذا الثقل يلقيه عن كاهله إلقاء ، وإنما يشير عليه بأن يثمر هذا المال ولا يضيعه ، وذلك بأن يقرض الله قرضاً حسناً ، فلا يضيع عليه ماله وإنما يرد عليه يوم

القيامه أضعافاً مضاعفة . وعبد الرحمن يسأل عما ينبغي أن يقرض الله من ماله ، فيقال له : ابدأ بما أمسيت فيه ، أى قم فتصدق بكل ما اجتمع لك من مال حين استقبلت المساء ، واعلم أنك حين تفعل ذلك لا تزيد على أن تبتدىء ، وأنتك ستمتحن فيما سيجتمع لك من المال في مستقبل أيامك بمثل ما امتحنت به فيما اجتمع لك من المال في أيامك الماضية . وقد ثقل الامتحان على عبد الرحمن بعض الثقل ، فهو يسأل النبي : أبكل ما اجتمع لى من المال ؟ فيجيبه النبي : نعم ! وينهض عبد الرحمن مصمماً على أن يمضى أمر الله ورسوله في هذا المال الذى يحبه والذى أنفق في جمعه وتثميته ما أنفق من الجهد والوقت ، واحتمل في تثميته ما احتمل من المشقة والعناء . ولا بأس عليه من أن يحب المال ، وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يمنعه حب المال من أن ينفقه ليبر به اليتامى والمساكين وذوى القربى وأبناء السبيل . أليس الله قد بين البر للمسلمين بأنه ليس التوجه إلى المشرق أو المغرب وإنما هو الإيمان بالله وإتناء المال على حبه للذين يحتاجون إليه .

ينهض عبد الرحمن إذن مصمماً على أن يمضى في ماله أمر الله ورسوله ، ولكن النبي يرسل إليه أن الله ورسوله يرفقان به بعد أن امتحناه ومحصاه ، فيأمرانه بأن يضيف

الضعيف ويطعم المسكين ويعطي السائل ويبدأ بأهله وعياله ؛
 فإن فعل فقد زكى نفسه تزكية ، وطهر ماله تطهيراً .
 حزم في الامتحان حتى تستبين العزيمة الصادقة الماضية
 على الإذعان مهما يكن شاقاً ، وعلى التضحية مهما تكن
 عزيزة ، وعلى الجهد مهما يكن ثقيلاً ؛ فإذا استبان العزيمة
 الجازمة وظهرت النية الصادقة فالله ورسوله يضعان عنهم بعض
 ما يحتملون من الثقل .

وقد اختار الله نبيه لجواره ، وانقطع خبر السماء ، وحُرم
 المسلمون هذا الوحي الذي كان يصاحبهم ويماسيهم ، وأصبح
 الناس ذات يوم وإذا رجّة عنيفة تتجاوب أصدائها أرجاء
 المدينة كلها ؛ وتسأل عائشة أم المؤمنين رحمها الله عن هذه
 الرجّة ، فيقال لها : هذه غير عبد الرحمن بن عوف قدمت .
 فتقول عائشة : أما أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : « كأتى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة
 ويستقيم أخرى حتى يفلت ولم يكد ! »

ويبلغ حديث عائشة عبد الرحمن ، وكانت هذه العير
 خمسمائة راحلة تحمل نفائس العروض من الشام ، فإذا سمع
 هذا الحديث قال : هي وما تحمله صدقة ! لم يكتف ببعض
 ما كانت تحمل ، ولم يكتف بكل ما كانت تحمل ، ولم
 يكتف بها دون ما كانت تحمل ، وإنما تصدق بها وبأحمالها .

ولو قد امتدت الحياة برسول الله واتصل نزول الوحي وتزلزلت أخبار السماء إلى الأرض ، لكان من الممكن أن يقبل النبي من عبد الرحمن التصديق ببعض تجارته والإبقاء على بعضها الآخر ؛ ولكن عائشة لم تزد على أن روت ما سمعت من رسول الله ، وأشفق عبد الرحمن من أن يميل به الصراط مرة ويستقيم به أخرى حتى يبلغ الجنة بعد جهد ، وحرص عبد الرحمن على أن يستقيم له الصراط فلا يكون فيه ميل ولا اضطراب حتى يبلغ الجنة في غير تشر ولا جهد ولا عناء .

وكان عبد الرحمن رحمه الله من أكبر المسلمين تصديقاً ، ومن أسخاهم بماله ، ومن أوصلهم للرحم ، ومن أبرهم بالناس ؛ أنفق حياته كلها مستثمراً لماله متصدقاً به ، وكان تصدقه لا ينقص من ماله . وإعما يزيد فيه ويضاعفه أضعافاً ، كأنما قضى الله ألا يجزيه عن صدقته في الآخرة وحدها ، وألا يضاعف له قرضه في الجنة وحدها ، وإنما يكفل له ثواب الدنيا والآخرة جميعاً .

هذا حديث قديم ، ولكن الأيام التي نعيش فيها نجعله جديداً كل الجدة ؛ وأنا أسوقه إلى الذين أتيح لهم من الغنى والثراء مثل ما أتيح لعبد الرحمن أو أكثر مما أتيح لعبد الرحمن ، وأحب أن يستقر في قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أنه كان من السابقين الأولين ، ومع أنه جاهد بنفسه

وماله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع أنه لم ينفق يوماً من أيامه إلا تصدق فيه بالكثير — أحب أن يستقر في قلوبهم أن الثراء إن ثقل على عبد الرحمن مع أن النبي قد ضمن له الجنة في نفر من السابقين الأولين ، فهو عليهم أثقل ؛ لأنهم لم يسبقوا إلى الإسلام ، ولم يجاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، ولم يضمن النبي لهم شيئاً إلا أنهم إن أحسنوا طاعة الله في أنفسهم وأموالهم لم يُضْعَ عليهم مما قدموا شيئاً . وإذا خاف النبي على عبد الرحمن ألا يبلغ الجنة إلا زحفاً ، وألا يعبر الصراط إلا بعد جهد ، فنحن أجدر أن نخاف على أغنيائنا ألا يبلغوا الجنة زاحفين ، وألا يعبروا الصراط جاهدين أو غير جاهدين .

فليُنظر أغنيائنا إلى ما حولهم من بؤس وشقاء ووباء وموت ، وليفكروا في أن أموالهم عارية مردودة ، وفي أن الذين يقرضون الله قرضاً حسناً يضاعف لهم قرضهم يوم القيامة ، وفي أن الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله قد بُشِّروا بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ويقال لهم : هذا ما كنتم تكتزون لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون !

١٠-10

سخاء

لست أدري أنصح هذه الأخبار كما أحب وكما أعتقد ،
 أم لا تنصح كما يحب المشككون وكما يعتقدون ؛ وهى سواء
 صحت أو لم تنصح تثير فى نفسى كثيراً من الخواطر ، وتثير
 فى قلبى كثيراً من العواطف ، وتدفعنى إلى كثير من التفكير ،
 كما تدفعنى إلى كثير من الأحلام الحسان العذاب ، التى
 إن صدقت كانت أحسن المنى ، وإن لم تصدق كانت قد
 أتاحت لى أن أعيش ساعات حلوة كما يريد الشاعر القديم
 أن يقول .

وهذه الأخبار هى التى تتصل بكرم الكرماء ، وجود
 الأجواد ، وتيرم الأغنياء بما يتاح لهم من الغنى وما يساق إليهم
 من الثراء ؛ والحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعاً حراصاً على
 المال ، بخلاء بما يملكون ، لا ينالون من الغنى حظاً إلا لبيتغوا
 حظاً أوفر مما نالوا ، ولا يحرزون من الثراء نصيباً إلا ليطلبوا
 أكثر مما أدركوا ؛ ثم هم على كثرة ما يملكون وكثرة ما يحصلون
 وكثرة ما يتراكم عندهم من الغنى ، أشبه شئ بالصخرة
 المصمتة ، ذات القاع البعيد أو التى ليس لها قاع ، فهى

لا تجود بشيء مما يستقر فيها من الماء مهما يكثر ومهما يركب بعضه بعضاً ، وإنما هي مصممة من جميع جوانبها ، ليس فيها أمل لمن يطيف بها إلا أن يحطمها تحطيماً .

الحمد لله الذى لم يخلق الناس جميعاً حرصاً على هذا النحو من الحرص ، بخلاء إلى هذا الحد من البخل ؛ وإنما جعل منهم بين حين وحين من لا يكره الغنى ، ولكنه على ذلك لا يقنى فيه ولا يتهالك عليه ولا يتخذة غاية ، وإنما يتخذة وسيلة ينفع بها نفسه وينفع بها أهله ، وينفع بها ذوى قرابته وذوى مودته ، وينفع بها أكثر عدد ممكن من الناس ، حين يتاح له أن ينفع أكثر عدد ممكن من الناس . هؤلاء الأجواد الأسخياء عزاء عن الحراص البخلاء ، يلقون فى روعك أن الإنسانية ليست شراً كلها ، وأن حياة الناس قد تكون صحراء مقفرة مجذبة شديدة العقم ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الواحة التى تقوم فيها بين حين وحين ، فتتيح للمسافر الذى عنّاه السفر وأضناه الجهد ، أن يجد فيها من الظل والماء ، ومن الراحة والروح ، ما ينسيه بعض ما احتمل من المشقة ، ويعينه على احتمال ما سيلقاه من الجهد حين يستأنف السعى فى صحرائه تلك المجذبة المقفرة ؛ وأولاً هؤلاء الأجواد الأسخياء لكأنك الإنسانية خليفة أن نبغضها أشد البغض وأعظمه بشاعة ونكراً .

والناس يلتمسون الراحة حيث يجدونها وكما يستطيعون أن يجدوها ، وهم لذلك يلتمسون العزاء حيث يجدونه وكما يستطيعون أن يجدوه : يلتمسونه من حولهم ، فإذا لم يظفروا به أبعدها في السعى والتمسوه في الأطراف النائية والأماكن المتباعدة ، فإذا أعياهم أن يظفروا به في المعاصرين ، من قرب منهم ومن بعد ، التمسوه فيما مضى من الأيام وفيما سلف من العصور . وقد يظن القارئ أنى أكثر أو أنزى ، ولكنى أؤكد له أنى لست من التكثر والتزيد فى شيء ، وإنما استقبلت هذه الأحداث التى تحدث ، والنوائب التى تنوب ، وهذا البؤس الذى يأخذ كثرة المصريين من جميع أقطارهم ، ويسعى إليهم من كل وجه ، يعدهم للموت حتى يسلم بعضهم إليه ، ثم يستأثر بمن بقى منهم فيمضى فى إعدادهم للموت ، متمهلاً حيناً ومتعجلاً حيناً ، وجعلت أنظر فيمن حولى من الأغنياء ، وأنظر فى موقفهم من هذا الشقاء الملم ، والبلاء المذل ، والهول الهائل ، والعذاب الشديد ، فلم أر إلا حرصاً وبخلاً ، وقسوة فى القلوب ، وغلظاً فى الأكباد ، وجفوة فى الطباع ، وكدرًا فى الضمائر ، ووجدت قومًا ينفقون على كره للإنفاق ، وقومًا آخرين يترددون بين الكرم والبخل ثم يؤثرون البخل بعد طول التردد واتصال التفكير ، وقومًا آخرين لا ينفقون ولا يترددون ولا يفكرون ، وإنما يجهلون من حولهم من الناس ،

ويجهلون ما حولهم من البؤس والفضلك والضيق والموت ، يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ، ويجعلون على أبصارهم غشاوة حتى لا يروا ، ويجعلون على قلوبهم أكنةً وأقفالا حتى لا يصل إليهم ما يثير فيها شيئاً من تضامن أو تعاطف أو راحة أو إشفاق .

أولئك وهؤلاء يُقبلون على لذاتهم ومنافعهم وآمالهم كما يتصورونها ، لا يعينهم أن يلدوا والناس من حولهم يألمون ، ولا يسوئهم أن ينعموا والناس من حولهم يتجرعون الشقاء والبؤس والعذاب غصصاً ؛ فهم يرقصون على جثث المواطنين ، ويسعلون بشقائهم ، ولا يفرقون بين هذه الموسيقى البشعة المتكررة التي تأتي من شكاة الشاكين وبكاء الباكين وأنين المرضى وحشرجة المحتضرين ، وهذه الموسيقى الأخرى التي تصل إليهم من عزف العازفين ونفخ النافخين ورقص الراقصين ، ولا يجلدون بأساً حين يقبلون على كثرتهم المترعة المصفاة ، أن يكون مزاجها من هذه الدموع الغزار التي لا ترى ولا تحس لأنها لا تتزف من أعين الناس وإنما تتزف من أعين مصر كلها . ودموع الناس قد ترى وقد تحس فيضيق بها الذين يرونها والذين يحسونها ، ولكن دموع الأوطان والشعوب والأجيال لا يراها ولا يحسها إلا الذين أُنِيج لهم شيء من رقة القلوب وصفاء النفوس وبقاء الضمائر وتهذيب الطباع ؛ وهؤلاء مع الأسف

قليلون بل هم أقل من القليل .

استقبلت هذا كله ونظرت فيمن حولي من الناس ، لأرى كيف يرفق بعضهم ببعض ، وكيف يعطف بعضهم على بعض ، وكيف يسرع الموسرون منهم إلى معونة المعسرين ؛ فلم أر شيئاً ذا خطر ، وإنما رأيت كرمًا قليلًا وكلاماً كثيراً ، واستباقاً إلى التفاخر الكاذب ، وتهالكاً مع ذلك على اللذة الباطلة والنعيم السخيف . وما أعلم أن أغنياءنا ، على كثرة ما يملكون ، وعلى كثرة ما يغل عليهم ما يملكون ، قد استطاعوا أن يجمعوا لمعونة المنكوبين بوباء الكوليرا مئة ألف من الجنيئات ، وأحسبهم ما زالوا بعيدين عن هذا المقدار أشد البعد ، وما أرى أنهم سيبلغونه أو يقربون منه . وهم قد أخذوا ينسون الوباء ، بعد أن آمنوا على أنفسهم — إن جاز للناس أن يأمنوا على أنفسهم — وبعد أن زعمت لهم وزارة الصحة أن الوباء قد أوشك أن يزول . لم يقتل أحد لنفسه — ولا يرجى أن يقول أحد منهم لنفسه — إن الوباء قد اختطف من أسر كثيرة رجالاً كانوا يعولونها ، واضطرها إلى إعدام لا سبيل إلى تصوره فضلاً عن وصفه ، وإن من حق هذه الأسر أن تعيش أولاً ، وأن تجد من عطف المواطنين عليها بعض العزاء عما ألم بها من الخطب ثانياً ، وأن تشعر بأنها أسر كريمة في وطن كريم ثالثاً .

لم يخطر لأحد منهم - ولا يرجى أن يخطر لأحد منهم -
 شيء من ذلك ؛ لأنهم مشغولون عن هذه الخواطر بجمع المال
 إلى المال ، وضم الثراء إلى الثراء ، وباللذات التي لا يفرغون
 من بعضها إلا ليةبلوا على بعضها الآخر ، ولا يستريحون منها
 إلا ليستأنفوا المكوف عليها والإمعان فيها ؛ ثم لم يخطر لأحد
 منهم - وليس يرجى أن يخطر لأحد منهم - أن يؤس البائسين
 وإعدام المعدمين لا يجر الخزي عليهم بمقدار ما يجر الخزي
 على وطنهم كله ، وعلى الذين أتاح لهم الظروف أن يكونوا
 عنواناً لهذا الوطن ، يلقون الأجنبي حين يفد على مصر ، ويسعون
 إلى الأجنبي إذا لم يفد على مصر ويسمعون منه - راضين
 أو كارهين - حديث الوباء والمنكوبين ، فلا يستحيون
 لأنفسهم ، ولا يستحيون لوطنهم ، ولا يستحيون لهذا الجيل
 من المصريين أن يوصم في أعين الأجنبي بالأثرة المنكرة التي
 تغض من صاحبها وتجعله خليقاً أن يزدري ويحتقر ، ولا يكرمه
 من يكرمه إلا بمقدار ما يتخذه وسيلة إلى تحقيق منافعه
 وقضاء آرائه .

أى بأس على إذا رأيت هذا كله وضقت بهذا كله ،
 فوجدتني بين اثنتين : إما أن أبغض الحياة والأحياء ، وأنكر
 الوطن والمواطنين ، وإما أن أتمس العزاء حيث أستطيع أن
 أتمسه ، وكما أستطيع أن أتمسه ، لعل الغمرة أن تنجلي ، وعلى

أستطيع — بعد وقت قصير أو طويل — أن أعود إلى هذا الجيل من المصريين المعاصرين ، ومن أغنيائهم خاصة ، فأقول لهم ، وأسمع منهم دون أن أجد في نفسي هذا الألم الممض ، وهذا الاشتزاز البغيض .

إلى التاريخ إذن وإلى أحاديث القدماء ؛ فقد ملأ المعاصرون قلوبنا بأساً ونفوسنا قنوطاً . لنهجرهم ، ولنهاجر في الزمان إذا لم تتح لنا الهجرة في المكان ، ولننظر في أخبار تلك العصور القديمة ، سواء أصبحت أم لم تصبح ؛ فهي إن صحت كانت لنا عزاءً ، وهي إن لم تصبح أتاحت لنا أن نحلم بجيل من الناس لا يكون الرجل فيه عبداً للمال ولا مرقوقاً للثروة ، وإنما يكون المال فيه عبداً للملكه ، وتكون الثروة فيه وسيلة إلى إعانة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وإنقاذ المحروم ، ثم إلى إثارة هذه العاطفة الخلوة التي يجدها الرجل الكريم حين يحس أنه قد أعان منكوباً وأغاث ملهوفاً وأنقذ محروماً وبر صديقاً ، وتصرف في ماله ولم يدع ماله يتصرف فيه .

إلى التاريخ إذن لننسى العصر الذي نعيش فيه ، وإلى أحاديث القدماء لتسلي عن سيرة المحدثين .

وتستطيع أن تصدقني أو لا تصدقني ، فإيعينني من ذلك شيء ، ولكنك تستطيع أن تقرأ — على كل حال — أنى وقفت وقفات طويلة ، طويلة جداً ، عند بعض هذه الأحاديث التي

تروى لنا عن القدماء من أصحاب الجود والسخاء ، عند هذه القصة التي تروى عن عثمان - رحمه الله - حين أجلب أهل المدينة أيام أبي بكر حتى ارتفعت الأسعار ، ولم يجد الفقراء وأوساط الناس ما يأكلون ، وأقبلت في أثناء ذلك غير لعثمان تحمل من الشام خيراً كثيراً ، فأسرع التجار إليه يريدون أن يشتروا منه بضاعته ليسيروا بها على الناس ، وجعل يساومهم حتى عرضوا عليه ما يعدل أربعة أضعاف أثمانها ، ولكنه أبى أن يبيع إلا إن استطاعوا أن يدفعوا إليه عشرة أمثال أثمانها ، فلما أظهروا العجز أنبأهم بأن الله قد وعده عشرة أمثالها إن تصدق بها ، ثم أعلن إليهم أنه يؤثر هذه التجارة على تجارتهم ، ويؤثر ثواب الله على أموالهم ، وأن بضاعته هذه صدقة للمسلمين ! نعم ! ووقفت وقفات طويلة ، طويلة جداً ، عند رجل آخر من أصحاب النبي ، هو طلحة بن عبد الله رحمه الله ، وقد دخلت عليه امرأته قرأته مفتتماً حزينا ، فلما سأله عن ذلك رفيقة به عطوفاً عليه ، أنبأها أن قد جاءه مال كثير ، فهو مهتم لا يدرى ما يصنع به ، فلم تزد امرأته على أن قالت له مبتسمة : اقسمه ! قال نعم ! ثم قسم هذا المال بين ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، واستقبل بعد ذلك ليله سعيداً ، وكان هذا المال أربعائة ألف درهم ! نعم ! وأقف وقفات طويلة ، طويلة جداً ، عند طلحة نفسه

حين باع أرضاً له وأدّى إليه ثمنها سبعمائة ألف درهم ، فلما حصل المال فى داره ، فكر غير طويل ثم قال : إن رجلاً يسمى وعنده هذا المال لا يدرى ما ادخر له القضاء من أمر الله لمغروراً ثم أمر فقسم هذا المال على ذوى قرابته وذوى مودته وذوى الحاجة من المسلمين ، ولم ينم حتى أنفقه عن آخره . والغريب أن هذا الإنفاق على كثرتة وعلى اتصاله لم ينته بطلحة إلى الفقر أو إلى شىء يشبه الفقر ؛ لأن الله قد وعد الأغنياء إذا أنفقوا فى سبيل البر مخلصين لا يبتغون رياء ولا شهرة ولا نفاقاً ، أن يحلف عليهم ما أنفقوا ؛ وقد قتل يوم الجمل وتعرضت ثروته بعد موته لخطوب كثيرة ، ولكن ورثته على رغم ذلك اقتسموا فيما بينهم ثلاثين مليوناً من الدراهم ! فليت أغنياءنا يفكرون فى أنهم يستطيعون أن ينفقوا من فضول أموالهم مخلصين ، غير منافقين ولا مرائين ، دون أن يرزأهم هذا الإنفاق شيئاً ذا خطر . وليت أغنياءنا يصدقون وعد الله أو يمتحنون هذا الوعد ، ليتهم ينفقون مخلصين غير مرائين ، ليتبينوا أيحلف الله عليهم ما أنفقوا ، ولكن هيهات ! ليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأن أغنياءنا لا يقرأون ، وهم إذا قرأوا لا يؤمنون ، وهم إذا آمنوا لا يغامرون ، وأهون عليهم أن يغامروا بالألوف فى ناد من أندية الميسر وميدان من ميادين السباق ، من أن يغامروا بالألوف فى سبيل من سبل البر ،

ليتبينوا أیصدقهم الله ما وعدهم أم لا . والشئ الذى یملاً
القلوب غیظاً والنفوس كدأ ، هو أن الحكومات ترى من
حرص الأغنياء ، وبخلهم ومن تقصيرهم ما ترى ، ثم لا یتیح
لنفسها من فرض الضرائب ما یتیح لها أن تعین المنكوب ،
وتغیث الملهوف ، وتنقذ المحروب ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً
فلا مرد له .

صدقنى أن الخیر كل الخیر للرجل الحازم الأديب ،
أن یفر بقلبه وعقله وضميره من هذا الجلیل . فإن أعجزه
الفرار إلى بلاد أخرى ، فلا أقل من أن یفر إلى زمان آخر
من أزمنة التاريخ .

١١-11

مصر المریضة

لم أكد أصعد إلى السفينة وأستقر فيها ، وأفرغ من هذه
المواسم البغیضة التى لا بد منها لكل مبحر مهما يكن الثغر
الذى یبحر منه ، حتى علمت بأن مصر مریضة ؛ فاستمعت
للنبأ غیر حافل به ولا آبه له ولا ملق إليه بالا . فالنبأ منشور
فی إحدى الصحف الفرنسية التى لا تصدر فی مارسيليا ؛
وما أكثر ما یشتر عن مصر من هذه الأنباء التى لا تصور
حقاً ولا تدل على شئ إلا ما یكون فی نفس الذین أبرقوا

بها من بغض لمصر أو ميل إلى الكيد لها والنعي عليها، والإسراف فيما يذاع عنها من أنباء السوء !

والصحف الفرنسية في هذه الأشهر الأخيرة قليلة العطف على مصر ، شديدة الضيق بها ، سريعة إلى التحدث عنها بما لا يحب المصريون ، تنتهز لذلك الفرص إن سنحت ، وتخلقها إذا لم تسنح ؛ وقد كان بيننا وبين فرنسا تلك الخطوب التي أحفظتنا على الفرنسيين وأغرتنا بهم ، وأحفظت علينا الفرنسيين وأغرتهم بنا ؛ فالقارئ المستبصر خليق أن يصطنع كثيراً من الحرص والأناة حين يقرأ أنباء مصر في فرنسا ، وحين يقرأ أنباء فرنسا في مصر ؛ ولست أخفي على القارئ أنني لم أكد أسمع ما نشر في تلك الصحيفة من أن مصر مريضة ، ومن أن مرضها شيء يشبه أن يكون وباء الكوليرا ، ومن أن الحكومة المصرية قد أخذت تتأهب لمقاومة الوباء ، حتى رفعت كفي وهززت رأسي وابتسمت ابتسامة ساخرة من هؤلاء الصحفيين الذين يريدون أن يكيدوا فلا يحسنون الكيد ، وأن يكذبوا فلا يحسنون تخير الأكاذيب .

ومضى يوم ويوم والسفينة تجرى إلى غايتها ، يعنف بها البحر حيناً ويفرق بها حيناً آخر ، دون أن يتحدث أحد إلى أحد بهذا النبأ السخيف الذي نشرته صحيفة سخيفة ، ومر بها القارئون مرّاً سريعاً ؛ ولكننا نمتسى ذات يوم وإذا إعلان قد

ألصق في غير موضع من السفينة ، ينبّه فيه المسافرون إلى أن الماء العذب سيحجز عنهم ساعات من النهار ، لتستطيع السفينة أن تبلغ بيروت دون أن تأخذ شيئاً من ماء مصر ، لأن وباء الكوليرا يمنعها من ذلك .^(١)

هنالك لم نرفع الأكثاف ولم نهز الرؤوس ، ولم نبتسم ابتسامات ساخرة ولا جادة ، وإنما نظر بعض المسافرين إلى بعض في صمت ، ثم أقبل بعض المسافرين على بعض يتساءلون . أما أنا فأعترف بأنني لم أرفع كتفي ولم أهز رأسي ، وإنما أطرقت إلى الأرض ، وجعلت أتضاءل وأتضاءل ، ووددت لو نظر إليّ من حولى من الناس فلم يروني ، ووددت لو تحدث إليّ من حولى من الناس فلم يسمعوا مني لحديثهم رجع جواب . فلم يكن الشعور الذى وجدته في ذلك الوقت شعور الخوف ، ولا الشور بالحاجة إلى الاحتياط ، وإنما كان شعوراً غريباً أستطيع الآن أن أقول إنه كان مزاجاً من الحزن والحزى جميعاً .

كان فيه الحزن على هذا البلد الذى كنا نراه خليقاً بالسعادة ، والذى أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لثرى به إلى بعض هذه السعادة التى كنا نراه لها أهلاً ، ثم ها نحن أولاء نرى الشقاء يصب عليه صيباً ، والبلاء يأخذه من جميع أقطاره ، والآلام والنوائب تسعى إليه من كل وجه . نرى

البؤس البائس يغمر الكثرة الكثيرة من أهله ، فيلابسهم ملابسة متصلة لا تفلح عنهم في ليل ولا نهار ، فهم جائعون عرا جهال ، أشقياء بهذا كله ؛ ويزيدهم شقاء أن كثيراً منهم يعرفون هذا البؤس الذي هم فيه ، ويعرفون أن من حقهم أن ينعموا ، ويريدون أن يخلصوا من بؤسهم ، وأن يحققوا لأنفسهم شيئاً من نعم ، ولكنهم لا يبلغون ما يريدون ، ولا يعرفون كيف يبلغون ، ما يريدون ، ولا يجدون من يعينهم على أن يبلغوا ما يريدون .

وفيه الحزن على هذا البلد الذي كنا نراه أهلاً للحرية والأمن ، والذي أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له ببعض حقه من الحرية والأمن ، ثم ها نحن أولاء ننظر فنراه مغلولاً لا يقدر على أن يتحرك ، معقود اللسان لا يقدر على أن ينطق ، مقفل القلب لا يقدر على أن يجد ما تجد الشعوب الحرة من الشعور بأيسر كرامة الإنسان ؛ ثم ننظر إليه فنجد من أجل ذلك خائفاً يترقب ، يخشى أن يعمل فيغضب سادته ، ويخشى أن يقول فيحفظ قاداته ، ويخشى أن يسكت فيسوء به ظن المسيطرين على أمره ، فهو حائر بين الحركة والسكون ، وبين الكلام والصمت ، وبين الشعور والحمود .

وفيه الحزن بعد ذلك على هذا البلد الذي كنا نراه أهلاً للاستقلال ، والذي أفنينا شبابنا وكهولتنا وجهودنا وقوانا لنظفر له بحقه في هذا الاستقلال ، ثم نحن ننظر فإذا هو يرد

عن حقه أعنف الرد وأقساه ، وإذا المنتصرون الذين كانوا
يَرْضُونَهُ وَيَتَمَلَّقُونَهُ فِي أَمْسِ الْقَرِيبِ ، قَدِ اثْتَمَرُوا بِهِ وَتَنَكَّرُوا لَهُ وَكَادُوهُ
كَيْدًا ، إِنْ صُورَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَصُورُ الْجُورَ وَالْغَدْرَ وَالظُّلْمَ وَالْجُحُودَ .
وفيه الحزن بعد هذا وذاك لهذا البلد الذي صُفِرَتْ عَنْهُ
ضُرُوبُ الْخَيْرِ فِي السِّيَاسَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْاِقْتِصَادِ ، وَمُنَحَهُ اللَّهُ
مَعَ ذَلِكَ إِقْلِيمًا مُعْتَدِلًا وَأَرْضًا خَصْبَةً وَسَمَاءً صَافِيَةً وَنَهْرًا يَفِيضُ
بِالنِّعَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ خَلِيقًا أَنْ يَكْفَلَ لِأَهْلِهِ حَيَاةً
مَادِيَةً مُحْتَمَلَةً ، وَيَصْرِفَ عَنْ أَهْلِهِ الْآفَاتِ وَالْعَلَلِ وَالْأَدْوَاءَ ؛
وَلَكِنَّا نَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُرِّمَ حَتَّى هَذِهِ الْحَيَاةُ ، وَإِذَا الْآفَاتُ
وَالْعَلَلُ وَالْأَوْبَةُ تَسْعَى إِلَيْهِ مِنْ أَقْصَى الشَّرْقِ وَمِنْ أَقْصَى
الْجَنُوبِ ، فَلَا تَجِدُ مِنْ يَرُدُّهَا عَنْهُ أَوْ يَحْمِيهِ مِنْ شَرِّهَا ، وَإِذَا
الْآفَاتُ وَالْعَلَلُ وَالْأَوْبَةُ تَهَيَّطَ عَلَيْهِ مِنْ سَمَائِهِ الصَّافِيَةِ ،
وَتَخْرُجُ لَهُ مِنْ أَرْضِهِ الْخَصْبَةِ ، وَتَسْعَى إِلَيْهِ مَعَ نَهْرِهِ الْفَيَاضِ ؛
وَإِذَا أَهْلُهُ مَرْتَعُ الْآفَاتِ وَالْعَلَلِ وَالْأَوْبَةِ ، تَصِيبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ
كَمَا تَشَاءُ ، وَمَتَى تَشَاءُ ، وَحَيْثُ تَشَاءُ ! وَإِذَا الْعَالَمُ كُلُّهُ يَتَلَقَّى
الْأَنْبَاءَ فِي أَقَلِّ مِنْ شَهْرٍ بِأَنْ هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ لِلْعِزَّةِ مَا زَالَ
مُسْتَدْلًا ، وَبِأَنْ هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ لِلْأَمْنِ مَا زَالَ خَائِفًا ،
وَبِأَنْ هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ لِلْحَرِيَةِ مَا زَالَ مُسْتَعْبَدًا ، ثُمَّ بِأَنْ
هَذَا الْبَلَدَ الَّذِي خُلِقَ لِلصَّحَّةِ مَرِيضٌ يَفْتَكُ وَبَاءَ الْكُؤْلِيرَا بِمَدَنِهِ
وَقَرَاهُ وَبِمَنْ فِي مَدَنِهِ وَقَرَاهُ كَمَا يَشَاءُ ، وَمَتَى يَشَاءُ ، وَحَيْثُ يَشَاءُ !

ثم في هذا الشعور الذى أطرقتُ له إلى الأرض وتضاءلت له وتضاءلت ، شيء عظيم كتيب من الخرى لهذا البلد الذى كنا نظنه قد تجاوز هذا الطور ، طور البلاد المتأخرة العتيقة الجاهلة التى تفتك بأهلها الأوبئة ، فإذا نحن نراه عرضة للوباء ، بل مرتعاً للوباء ؛ وأى وباء ؟ وباء الكوليرا الذى كنا نظن أنه لن يعود إلى مصر بعد أن فعل بها وبأهلها الأفاعيل في أول هذا القرن .

ليت شعري ماذا صنعت مصر ؟ وماذا صنع المصريون ؟ يقال إنهم قد أنشأوا في هذا القرن كثيراً من المدارس ومعاهد العلم ، ومضوا في الحضارة الحديثة إلى أبعد حد ممكن ، فلهم برلمان كما أن لغيرهم من الأمم برلمانات ، ولهم وزارات منظمة كما أن لغيرهم من الأمم المتحضرة وزارات منظمة ، ولهم وزارة قد خصصت لشئون الصحة ، كما أن لغيرهم وزارة مخصصة لشئون الصحة ، ولهم عاصمة تتفوق على كثير من عواصم البلاد المتحضرة وتقاس إلى عواصم الدول الكبرى ، يعجب بها أهل باريس وأهل لوندرة وأهل نيويورك إذا ألما بها وأقاموا فيها ؛ وهم بعد هذا كله قد نالوا من الترف ما صُرف عن كثير من الأمم المتحضرة في هذه الأيام ، حتى أصبح ثراؤهم وترفهم وإقبالهم على اللذات مضرب الأمثال في أقطار الأرض كلها . . . كل هذا حق ، وكل هذا شيء نسمعه

حين نزور باريس وغير باريس من المدن الكبرى في أوروبا وفي أمريكا . كل هذا حق ، ولكن من الحق أيضاً أن العالم كله قد تلقى منذ شهر نبأ مقتضباً ولكنه على ذلك خطير أشد الخطورة ، تلقى النبأ بأن مصر التي أراد إسماعيل أن يراها جزءاً من أوروبا قد ألم بها وباء الكوليرا وأقام فيها ، وأنها تريد أن تردده فلا تستطيع له ردّاً ، وأنها تستعين بالعالم المتحضر على وقاية أبنائها من شره وحمايتهم من فتكه البغيض .

وكننت أظن أن هذا الشعور بالحزى مظهر من مظاهر الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ، ولكني لم أكد أبلغ مصر حتى عرفت أنني لست مستأثراً من دون المصريين المثقفين بهذا النوع من الغرور والكبرياء والاعتداد بالنفس والوطن ؛ فكل مصري مثقف يقلب نفسه ويقدر وطنه ، ويستحضر ما بذل المصريون من ألبهود في العصر الحديث ليرقوا بوطنهم إلى حيث ينبغي أن يكون من العزة والأمن والحرية والصحة في الأبدان والقلوب والعقول ؛ كل مصري مثقف يجد هذا الشعور المر الذي وجدته ، والذي هو مزاج يأتلف من الحزن الممض والحزى الذي تَطْأُطاً له الرؤوس .

وينظر إلى من كان حولى من المسافرين ، وفيهم المصري والأجنبي ، فيروهم ما يرون من هذا الوجوم الذي أغرق فيه إغراقاً غريباً ، فيظنون بي في أعماق أنفسهم الظنون ، ويسألني

بعضهم محاولاً أن يهون على الخطب وأن يردني إلى شيء من الأمن : ماذا أبجد ! فلا أزيد على أن أذكره بأنى أعرف وباء الكوليرا ، وبأنى قد تحدثت عنه فى بعض ما قرأ لى من كتب ، وبأنى قد رأيت هذا الوباء ولما أتجاوز العاشرة ، فكان له فى قلبى وحياتى كلها أبلغ الأثر وأعظمه وأبغضه وتأثر الأطفال حين يكون عميقاً بغيضاً إلى هذا الحد لا يفارقهم مهما تمتد لهم أسباب الحياة .

أصدقونى أم لم يصدقونى ؟ لا أدرى ! ولكنى أنا لم أصدق نفسى ، فلم يكن بين هذا الوجوم الذى أغرقت فيه وبين ذكريات الصبا على مرارتها وعلى ماثير فى النفس من الحسرات ، صلة قريبة أو بعيدة فى ذلك الوقت ، وإنما نشأ هذا الوجوم عن هذا الشعور الحزين المستخذى الذى يجده المصرى المثقف حين يرى آماله وأعماله وجهوده ، وآمال أكثر من نظرائه وأعمالهم وجهودهم ، تنهار كأنهم لم ينعموا بهذه الآمال ، وكأنهم لم يسعدوا بما حاولوا من الأعمال ، وكأنهم لم يستمتعوا بما بذلوا من الجهود ، وكأنهم لم يتحدثوا إلى أنفسهم ولم يتحدث بعضهم إلى بعض بأن آمالهم التى كانت بعيدة قد أخذت تقرب وتقرب حتى توشك أن تتحقق ، وبأن أعمالهم الشاقة قد أخذت تؤتى ثمراتها ، وبأن جهودهم الغنية قد أخذت تدنهم من غاياتهم ، وبأنهم سيستطيعون بعد حين أن يقفوا بعد طول السعى ،

وأن ينظروا فإذا هم لم ينفقوا حياتهم عبثاً ، ولم يبذلوا جهودهم في غير طائل ، وإنما تلقوا من آبائهم وطناً ضعيفاً مهيبضاً عليلاً ، فما زالوا به حتى ردوا إليه شيئاً من قوة وصحة وعافية ونشاط ، ومضوا به في طريق العزة والكرامة أشواطاً وأشواطاً ، وهم يستطيعون أن يسلموه إلى أبنائهم مطمئنين إلى أنهم قد نهضوا بالحق فأحسنوا النهوض ، وأدوا الواجب فأحسنوا الأداء .

كان هذا الشعور بخيبة الأمل وضبعة العمل مصدر هذا الوجوم الذي أغرقت فيه ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتحدث بشيء من ذلك إلى من كان حولى من الناس ؛ فهم كانوا مشغولين بأنفسهم عن المثقفين المصريين وعن آمالهم وأعمالهم وجهودهم ، وعن هذه الفلسفة اليائسة التي تغمر قلوبهم في هذه الأيام السود ؛ وهم كانوا يتحدثون فيما بينهم بما ينبغي أن يتخذوا من ضروب التحفظ وألوان الاحتياط ، وهم على كل حال قد عرفوا أني لا أحب أن أسمع لحديث الكوليرا ولا أن أشارك فيه ، فأعفوني من هذا الحديث ، ولكن الأنباء لم تعفني منه ؛ فقد كانت نشرة السفينة تعلن إلينا كل يوم عدد الإصابات وعدد الوفيات وأماكن هذه وتلك ؛ ولم نشرف على الإسكندرية حتى لم يكن لأهل السفينة كلهم حديث إلا هذا الوباء ؛ وكنت أظن أني سأجد إذا بلغت مصر وجوماً شائعاً وحزناً منتشرأ واستخذاءً شاملاً ، كما كنت أجد في نفسي من الوجوم والحزن والاستخذاء ، ولكني أبلغ الإسكندرية

وَأَلْقَى مِنْ شَاءِ اللَّهِ أَنْ أَلْقَى مِنَ الْمَصْرِيِّينَ ، فَإِذَا حَيَاتِهِمْ تَجْرَى عَلَى الْوَيْتَةِ الَّتِي أَلْفَنَاهَا ، وَإِذَا الْوَبَاءُ يَرُوعُهُمْ وَلَكِنَّهُ لَا يَصْرِفُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ لَذَاتِهِمْ ، وَإِذَا أَنْبَاءُ السِّيَاسَةِ تَحْزَنُهُمْ ، وَلَكِنَّهَا لَا تُلْهِيمُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ لَذَاتِهِمْ ، وَإِذَا أَنْبَاءُ الْاِقْتِصَادِ تَخْفِيفُهُمْ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا عَنْ لَذَاتِهِمْ ؛ وَأَبْلَغُ الْقَاهِرَةِ فَأَرَى فِيهَا مِثْلَ مَا رَأَيْتُ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، وَإِنَّمَا الَّذِينَ تَشْغَلُهُمْ أَنْبَاءُ الْوَبَاءِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْاِقْتِصَادِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَنْ لَذَاتِهِمْ قَلَّةٌ ضَخِيلَةٌ لَيْسَ أَيْسَرُ مِنْ إِحْصَائِهَا ؛ فَأَمَّا مِنْ عَدَا هَذِهِ الْقَلَّةِ فَخَاضُونَ فِي حَيَاتِهِمْ كَمَا تَعُودُوا أَنْ يَمْضُوا : أَلْسَنَةً طَوَالَ وَعُقُولَ قِصَارٍ وَقُلُوبَ قَاسِيَةٍ كَالْحِجَارَةِ بَلْ أَشَدَّ قَسْوَةً ، فَلَا أَمَلَكُ نَفْسِي أَنْ أَتْلُوَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ، وَلَا أَمَلَكُ نَفْسِي أَنْ أَتْلُوَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . »

وَيَقْبَلُ الْعِيدَ إِذَا الْمُتَرَفُونَ مُقْبِلُونَ عَلَى عِيدِهِمْ كَمَا أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ عِيدُهُمْ ، لَا يَشْعُرُونَ بِأَنْ مَنَاتٍ مِنَ الْأَسْرِ فِي مَنَاتٍ مِنَ الْمَدِينِ وَالْقَرْيَةِ قَدْ كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْعِيدَ كَمَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ ، وَتَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِمَّا كَانُوا يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ الْعِيدَ أَخْلَفَهُمْ مَوْعِدُهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْمَوْتَ نَائِبًا عَنْهُ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَعَ الْمَوْتِ حَسِرَاتٍ وَعِصْرَاتٍ وَزَفَرَاتٍ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَعَ هَذَا كُلِّهِ شِقَاءَ مُلْحًا

وبؤساً مقيماً . نعم ! ولا يشعرون بأن أمهم مصر مريضة ،
وبأن مرضها هو التزيف المهلك ، ولكنها لا تتزف دماً وإنما تتزف
أبناءها وبناتها نزفاً . لا يشعرون بشيء من ذلك ، أو يشعرون به
ولا يلتفتون إليه ، أو يشعرون به ويلتفتون إليه ولكنهم لا يحفلون
إلا بأنفسهم ولا يشفقون إلا عليها ، كأنهم يستطيعون أن يعيشوا
وينعموا ويستمتعوا بالحياة إذا ضرب الحزن والبؤس والموت
أطنابها على هذا البلد البائس الشقي .

هيهات ! هيهات ! إنما ذلك تعليل النفس بالأمانى
الباطلة ، وخداعها بالآمال الكاذبة ، وإن المصريين بين
اثنتين لا ثالثة لهما : فلما أن يعضوا في حياتهم كما ألقوها ،
لا يحفلون إلا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم ، وإذن فليشكوا
بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التي لا تبقى ولا تذر ؛ وإما أن
يستأنفوا حياة جديدة كذلك التي عرفوها في أعقاب الحرب
العالمية الأولى ، قوامها التضامن والتعاون وإلغاء المسافات والآماد
بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين الأصحاء
 والمرضى ؛ وإذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول ،
وعلى الكارثة حتى تتمحى ، وعلى الغمرات حتى ينجلين .
إلى أى الطريقين يريد المتزفون من المصريين أن يذهبوا :
إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة ؟ سؤال ألقبه على نفسه
حين أصبح ، وألقبه على نفسه حين أمسى ، وأضرع إلى
الله بين ذلك أن يحنيني اليأس ، ويعصمني من القنوط ؛
« إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . »

وَارْحَمَةً لَهُؤْلَاءِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ فَيَتَطَلَعُونَ إِلَى
الوَاجِدِينَ لَعَلَّهُمْ يَحْسُونُ نَحْوَهُمْ بِالْعُطْفِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَنْتَشِرَ..
وَارْحَمَةً لَهُؤْلَاءِ الَّذِينَ يَطْوُونَ أَكْبَادَهُمْ عَلَى مَخْمَصَةٍ بَيْنَمَا الطَّعَامُ
يَتَخَمُّ قَوْمًا قَرِيبِينَ مِنْهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَحْسُونَ إِحْسَاسَ الْمَحْرُومِ..
إِنْ ضَوْءُ الشَّمْسِ مَلِكٌ لِكُلِّ ظِمَآنٍ.. فَفِيمَ يَسْتَأْثِرُ قَوْمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ
لِكِي يَحْرَمُوا النَّاسَ بَعْضُ الشَّيْءِ؟.. هَذِهِ صُورٌ مِنَ الْعَدَالَةِ الَّتِي
يَجِبُ أَنْ تَسُودَ، وَقِصَصٌ مِنَ الطُّغْيَانِ الَّذِي لَنْ يَعُودَ.



دارالمعارف

٠١٤٩٤٦/٠١

